

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة ابن زهر

كلية الشريعة

أكادير

فقه السيرة النبوية

الاستاذة العبادي مريم

السنة الدراسية: 2025-2026

مقدمة

وُضعت هذه المادة لطلبة مادة فقه السيرة النبوية، لتعينهم على دراسة حياة النبي صلى الله عليه وسلم دراسة تجمع بين تثبيت الحدث التاريخي، وفهم دلالاته العقدية والتربوية والتشريعية، وربطه بمقاصد الدعوة وبناء الإنسان والمجتمع.

تعتمد المحاضرات كتاب فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مرجعاً رئيساً، مع توثيق مواقع الأحداث في مصادر أخرى من كتب السيرة ودلائل النبوة. وقد روعي في التوثيق تنويع المراجع، والإحالة إلى موضع الحدث، وتجنب نسبة النصوص المركبة أو المختلف فيها إلى مصدر واحد دون بيان. نُظمت المادة في إحدى عشرة محاضرة متتابعة، تبدأ بمدخل إلى مفهوم فقه السيرة ومصادرها، ثم تعرض مراحل السيرة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة إلى حجة الوداع ووفاته. وتختتم كل محاضرة بمضامين مركزة وأسئلة للمراجعة والتقويم؛ لتيسير الاستيعاب والمناقشة والتحضير للامتحان.

الأهداف التعليمية

- ضبط التسلسل العام لأحداث السيرة النبوية وتمييز الثابت من المشهور غير المحرر.
- فهم الصلة بين الحدث التاريخي والأحكام والدلالات المستنبطة منه.
- تنمية القدرة على المقارنة والتحليل والاستدلال بالمصادر.
- استحضار السيرة بوصفها نموذجاً عملياً لبناء الفرد والمجتمع والدولة.

فهرس المادة

- ١ - المحاضرة الأولى مدخل إلى فقه السيرة ومصادرها
- ٢ - المحاضرة الثانية حياة النبي قبل البعثة وبدء الوحي
- ٣ - المحاضرة الثالثة مراحل الدعوة في مكة
- ٤ - المحاضرة الرابعة الأنصار وبيعنا العقبة والهجرة
- ٥ - المحاضرة الخامسة بناء المجتمع في المدينة
- ٦ - المحاضرة السادسة غزوتا بدر وأحد
- ٧ - المحاضرة السابعة الأحزاب وبنو قريظة والحديبية وخيبر
- ٨ - المحاضرة الثامنة السرايا ومكاتبه الملوك
- ٩ - المحاضرة التاسعة فتح مكة وما بعده
- ١٠ - المحاضرة العاشرة غزوة تبوك وحج أبي بكر
- ١١ - المحاضرة الحادية عشرة حجة الوداع ومرض النبي ووفاته

المحاضرة الأولى مدخل إلى فقه السيرة ومصادرها

مضامين المحاضرة

- ١ - أهمية السيرة النبوية في فهم الإسلام وتحويل مبادئه إلى نموذج عملي.
- ٢ - نشأة تدوين السيرة وتطور مناهجها من الرواية إلى التحليل والاستنباط.
- ٣ - المصادر الأساسية للسيرة وضوابط نقد الأخبار والروايات.
- ٤ - الحكمة من البعثة في الجزيرة العربية وعلاقة الرسالة الخاتمة بالرسالات السابقة.

أهمية السيرة النبوية في فهم الإسلام:

إن الغرض الأساسي من دراسة السيرة النبوية وفقهها هو تمكين المسلم من تصور الحقيقة الإسلامية في كليتها مجسدة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن كان قد فهمها مبادئ وقواعد مجردة في الذهن. وهذا التصور الشامل يولد في القلب محبة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعلقاً بسنته.

ويمكن تفصيل هذا الغرض الرئيسي إلى عدة أهداف فرعية:

أولاً: تهدف دراسة السيرة إلى فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم (النبوية) من خلال واقع حياته والظروف التي أحاطت به، وذلك للتأكد من أنه لم يكن مجرد عبقرى انفرد بمواهبه بين قومه، بل كان قبل ذلك رسولاً مرسلًا، أيده الله بالوحي والتوفيق. وهذا الفهم يحمي العقل من الانزياح في تفسير شخصيته الفذة.

ثانياً: أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل العليا متجسدة في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، ليتخذ منها دستوراً عملياً يتمسك به ويسير عليه. ولقد جعل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم قدوة لكل مؤمن، فقال في محكم كتابه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} الأحزاب: 21. فسيرته هي النموذج العملي للإسلام الذي يترجم النصوص إلى واقع معاش.

ثالثاً: أن يعين دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم هو التطبيق الحي للقرآن، فكأنه كان قرآناً يمشي على الأرض. فمن خلال أحداث السيرة ومواقفه تتجلى معاني الآيات ومراميها بشكل أوضح وأعمق.

رابعاً: أن يجمع المسلم من خلال دراسة سيرته أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة، سواء ما تعلق منها بالعقيدة والأحكام أو بالأخلاق والآداب. فسيرته جامعة لشتى العلوم الشرعية، مستمدة من المنهج العملي للنسبة.

خامساً: أن يجد المعلم والداعية الإسلامي نموذجاً حياً لطرائق التربية والتعليم، فقد كان صلى الله عليه وسلم مربياً فاضلاً ومعلماً ناصحاً، لم يدع وسيلة ناجحة إلا سلكها، ولا طريقة مؤثرة إلا اتبعها في تربية أصحابه وتعليمهم. وإن مما يجعل سيرته صلى الله عليه وسلم وافية بتحقيق هذه الأهداف جميعاً أن حياته الشريفة قد شملت كل النواحي الإنسانية والاجتماعية الموجودة في حياة الإنسان، سواء كان فرداً مستقلاً بذاته أو عضواً فاعلاً في مجتمعه، فقد تمت النموذج الكامل للإنسان المستقيم في جميع أحواله.

- السيرة النبوية - كيف تطورت دراستها وكيف يجب فهمها اليوم.

كيف بدأت ثم تطورت كتابة السيرة:

لا ريب أن سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تشكل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ العظيم الذي يعتز به المسلمون على اختلاف لغاتهم وأقطارهم. فهي ليست مجرد أحداث مضت، بل هي المحور الذي دار حوله بناء الحضارة الإسلامية، والمثال الحي الذي استمدت منه الأمة شرعيتها ومنهج حياتها. وقد امتلك فن الرواية عند العرب والمسلمين منهجاً علمياً دقيقاً لرصد الوقائع وتمييز الصحيح من السقيم، لم يصل إلى دقته أي منهج آخر. وهذا لم يأت من فراغ، بل نبع من إدراكهم العميق أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته هما المفتاح الأول لفهم كتاب الله تعالى، كما أنهما النموذج العملي الأسمى لتطبيق هذا الوحي والعمل به. وقد تجلى هذا الفهم في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} النحل: 44.

لقد نهض بهم دافع اليقين بنسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأن القرآن كلام الله تعالى، وبأنهم يحملون مسؤولية العمل بمقتضاه، وأن الله محاسبهم على ذلك حساباً دقيقاً، فتحملوا لأجل ذلك أقصى الجهود في سبيل وضع منهج علمي تحصن فيه السنة النبوية وتحفظ به مصادر الإسلام من أي دخيل أو تحريف.

وما قواعد علم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل إلا الثمرة المباشرة لهذا الجهد المتقن. فقد وُجد هذا المنهج الدقيق أولاً لخدمة السنة المطهرة، التي تُعد السيرة النبوية الإطار العام والقلب الذي يحتويها، مما جعلهم أمام ضرورة دينية حملتهم على تدوينها، ليحفظوا للأمة دينها ويضمنوا نقاء مصادره.

كيف بدأت ثم تطورت كتابة السيرة:

تأتي كتابة السيرة النبوية، من حيث الترتيب الزمني للتدوين، في المرتبة الثانية بعد كتابة السنة النبوية الشريفة.

وقد بدأ جمع السيرة بمرحلة الرواية الشفهية، حيث قام صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنقل أخباره وأحداث مغازيه وسيرته إلى من بعدهم. ثم تلقى هذا العلم أبناء الصحابة وكبار التابعين، الذين حرصوا على أخذ هذه الروايات شفاهةً بنفس درجة العناية والدقة التي نقلها بها الصحابة، واستمر هذا النهج حتى نهاية القرن الأول الهجري.

أما مرحلة التأليف المستقل للسيرة النبوية، فقد بدأت مع أوائل القرن الثاني الهجري، ويُعد عروة بن الزبير رضي الله عنه (ت 92 هـ) من أوائل من اهتم بتدوينها، ثم تبعه في ذلك كل من وهب بن منبه (ت 110 هـ)، وشرحبيل بن سعد (ت 123 هـ)، وابن شهاب الزهري (ت 124 هـ)، الذين مثلوا الطبقة الأولى من مؤرخي السيرة.

ثم جاءت الطبقة التالية، والتي برز فيها محمد بن إسحاق (ت 152 هـ)، الذي اتفق الباحثون على أن كتابه في السيرة يُعد من أوثق ما كُتب في ذلك العصر. وقد قام محمد بن عبد الملك المشهور بابن هشام (ت 213 هـ) بتهديب سيرة ابن إسحاق واختصارها، وهي السيرة المشهورة المتداولة بين الناس والمعروفة باسم "سيرة ابن هشام". وبعد هؤلاء الأئمة، جاءت طبقة لاحقة أثرت المكتبة الإسلامية بمصنفات كاملة وشاملة في السيرة، مثل كتاب "المغازي" للواقدي، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد، وتاريخ الطبري، ثم ما تلاه من مؤلفات ضخمة مثل "البداية والنهاية" لابن كثير و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير.

وكانت ثمرة هذه الحركة العلمية النشطة أن تكوّنت ثروة هائلة من المصنفات الموثقة في السيرة النبوية، اكتملت فيها مرويات السيرة نقداً للسند وتحليلاً للمتن. مما فتح الباب أمام العلماء في العصور التالية للتركيز على نقد هذه المرويات والتعليق عليها، واستمرت مسيرة التأليف والشرح في هذا الفن الجليل جيلاً بعد جيل، حتى عصرنا الحاضر.

مصادر السيرة النبوية التي إعتمدها سائر الكتاب على إختلاف طبقاتهم.

اعتمد كُتّاب السيرة النبوية عبر العصور على مصادر رئيسية ثلاث، استقوا منها أحداث وحياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي على النحو التالي:

أولاً: القرآن الكريم.

يُعد كتاب الله تعالى المصدر الأول والأساسي لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء سجلاً حافلاً لأبرز المحطات في مسيرة الدعوة، وتميز به أسلوبه المعجز في عرض هذه الأحداث، بالمزج بين سرد التاريخ وتربية الأمة.

ثانياً: كتب السنة النبوية.

تشكل كتب السنة النبوية المصدر الثاني، وهي تلك المدونات التي جمعها أئمة الحديث الموثوقون في صدقهم وأمانتهم، مثل الكتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيرها. وتكمن قيمة هذه المصادر في حرصها على نقل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته بدقة فائقة. غير أن الجدير بالملاحظة أن عناية هذه الكتب انصرفت أساساً إلى كون السنة مصدراً تشريعياً، لا عملاً تاريخياً يُسجل بحسب تتابعه الزمني، لذا نجدها مرتبة غالباً على الأبواب الفقهية، أو على أسماء الصحابة الرواة، دون مراعاة للتسلسل التاريخي للأحداث.

ثالثاً: رواية السيرة من الصحابة والتابعين.

تمثل الروايات الشفهية التي نقلها الصحابة والتابعون المصدر الثالث المهم للسيرة. فقد حرص العديد من الصحابة رضي الله عنهم على نقل مشاهداتهم الشخصية لأحداث السيرة، حيث لم يكن هناك صحابي حضر مشهداً من مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم إلا وحرص على روايته لإخوانه ومن بعدهم، وتكرار ذلك في مناسبات عديدة. وقد بدأ هذا النقل بشكل شفهي في البداية، دون جمع منهجي، إلى أن جاء عصر التدوين فاحتضن هذه الروايات وحفظها من الضياع.

تطور مناهج كتابة السيرة النبوية: من السرد إلى التحليل

لطالما حظيت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم باهتمام بالغ من قبل العلماء والمؤرخين المسلمين. إلا أن هذا الاهتمام لم يتبع نهجاً موحداً في الكتابة، بل تنوعت المناهج والأساليب بتنوع خلفيات المؤلفين واهتماماتهم، مما أثرى المكتبة الإسلامية بتنوع فريد.

أبرز المناهج في كتابة السيرة:

- 1- **المنهج السردى:** هو أقدم المناهج، ويعتمد على نقل الروايات والأحداث بترتيبها الزمني دون تعليق أو تحليل عميق، مع اختلاف في درجة صحة هذه الروايات، ويمثل هذا النهج كتابات الرواد الأوائل مثل: "عروة بن الزبير"، الذي نقل السيرة مباشرة عن مصادرهما المباشرة كالسيدة عائشة رضي الله عنها.
- 2- **المنهج التاريخي (التسلسلي):** يهتم بترتيب أحداث السيرة ترتيباً زمنياً دقيقاً، سنةً تلوَ أخرى، مع جمع أكبر قدر ممكن من الروايات. من أبرز أعلام هذا المنهج الطبري في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" وابن الأثير في "الكامل في التاريخ".
- 3- **المنهج التحليلي:** لا يكتفي هذا المنهج بسرد الوقائع، بل يغوص في أعماقها لاستخراج الدروس والعبر والعظات، وربطها بواقع الحياة لتكون منهجاً عملياً. ويعد كتاب "زاد المعاد" لابن قيم الجوزية نموذجاً رفيعاً لهذا الأسلوب، حيث يعقب على الأحداث باستنباطات فقهية وتربوية.
- 4- **المنهج الموضوعي:** يقوم على دراسة السيرة من خلال محاور محددة، مثل الجوانب التربوية أو العسكرية أو الاجتماعية، لتقديم رؤية متكاملة عن كل مجال. ومن أمثلته كتب "الشمالك" للترمذي و"الشفاء" للقاضي عياض.
- 5- **النظم الشعري:** استخدم بعض الأدباء الشعر لنظم أحداث السيرة ومدح النبي، كما في قصيدة "البردة" للإمام البوصيري، مما جعل السيرة عاطفية سهلة الحفظ.

نقد روايات السيرة بين المحدثين والمؤرخين:

يشكل منهج نقد الروايات حجر الزاوية في مصداقية السيرة، وقد برز هنا اختلاف جوهري بين منهجين رئيسيين:

- **منهج المحدثين:** وهو منهج صارم وُضع أساساً لنقل السنة النبوية، ويؤكّز على نقد "السند" (سلسلة الرواة) و"المتن" (نص الرواية) وفق قواعد دقيقة في "علم الجرح والتعديل". ويهتم بتوثيق كل رواية بإسنادها الكامل.

- **منهج المؤرخين:** يركز أكثر على جمع الأخبار التاريخية وتدوينها بغض النظر عن درجة صحتها أحياناً، مع الاهتمام بالسياق الزمني والموضوعي للأحداث، وقد لا يلتزمون دائماً بذكر الأسانيد كاملة.

فقرر العلماء أن درجة الدقة المطلوبة تختلف باختلاف نوع الخبر

يُتشدّد فيه: في كل ما يتعلق بالعقيدة، والأحكام الشرعية، وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وأخبار الصحابة الثقات. فلا تُقبل إلا الروايات الصحيحة من عدول ضابطين.

يُتساهل فيه نسبياً: في الروايات التاريخية التي لا تترتب عليها أحكام عملية، مثل بعض التفاصيل الإخبارية. فيُقبل فيها الرواية الضعيفة (مثل رواية من قيد حفظه) أو المنقطعة السند إذا تعاضدت مع روايات أخرى، لدعم الصورة العامة للحدث دون الاعتماد عليها وحدها.

ونظراً لكون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم هي المنهج العملي للإسلام، وإعادة توثيق الصلة بها مسؤولية علمية جسيمة فالمنهج الأمثل لكتابة السيرة اليوم هو باعتماد منهج متكامل يجمع بين:

- دقة المحدث في نقد الأسانيد.

- أسلوب المؤرخ الشمولي في ربط الأحداث وتحليل سياقاتها.

- بصيرة المحلل في استنباط الدروس وربطها بالواقع.

فبهذا الجمع يمكن بناء تصور صحيح لماضي الأمة، واستشراف مستقبلها على هدي النبوة.

من مراجع السيرة النبوية الشاملة والموثوقة:

مراجع قديمة وشاملة

- السيرة النبوية لابن هشام: يُعدّ من أشهر وأقدم الكتب التي جمعت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث استند إلى كتاب ابن إسحاق وقام بتهديده وتنسيقه.
- السيرة النبوية لابن كثير: عرف في نقل الروايات وتوثيقها.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي: كتاب شامل ومتخصص في فنون المغازي والشمائل والسير.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس: كتاب جامع لعلوم السيرة النبوية.

مراجع حديثة ومعاصرة

- كتب في السيرة النبوية بأسلوب معاصر:
- السيرة النبوية الصحيحة : للدكتور أكرم ضياء العمري: يُعد من الكتب الرائدة في السيرة، ويتميز بمنهجه العلمي التحليلي.
- الرحيق المختوم: كتاب شامل للمباركفوري، يعتبر من الكتب الأكثر انتشارًا في السيرة.
- فقه السيرة لـ محمد الغزالي: يتناول أحداث السيرة لاستنباط الأحكام الفقهية والفوائد منها
- فقه السيرة لـ محمد سعيد رمضان البوطي: كتاب آخر في نفس السياق، يهتم باستنباط الدروس الفقهية من السيرة، وهو المعتمد الرئيسي في هذه المحاضرات.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة: كتاب معاصر يتناول السيرة بأسلوب يربطها بالقرآن والسنة.
- السيرة النبوية للدكتور علي الصلابي: عمل تحليلي يجمع بين منهج المؤلفين السابقين ويضيف إليه.
- الرسول: حياته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره لعبد الرحمن سالم: يتناول حياة الرسول وتطور الدعوة في عصره.
- السيرة مستمرة للدكتور أحمد خيرى العمري: كتاب يستعرض أحداث السيرة النبوية بمنظور يربطها بالواقع المعاصر.

كيف نستفيد من دراسة السيرة النبوية

إن المنهج الصحيح لدراسة سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينبغي أن ينطلق من الهوية التي قدم بها نفسه للعالم، فقد جاء نبياً مرسلًا من عند الله تعالى إلى الناس كافة، مؤكداً حقيقة التوحيد التي حملها الأنبياء من قبله، ومبيناً أنه خاتم الرسل. وقد أوضح صلى الله عليه وسلم أنه بشر مثلهم، لكنه مؤيد بالوحي الإلهي لتبليغ رسالة تعرف الناس بحقيقتهم ومصيرهم بعد الموت، كما تلفت أنظارهم إلى ضرورة انسجامهم في سلوكهم الاختياري مع هوياتهم التي لا مفر منها، أي أن عليهم أن يكونوا عبيداً لله بتعيينهم وسلوكهم الاختياري، كما تحققت فيهم هذه العبودية بالواقع الاضطراري. ثم أكد لهم بكل مناسبة أنه لا يملك أن يزيد أو ينقص أو يبدل شيئاً من مضمون هذه الرسالة التي حمّله الله مسؤولية إبلاغها إلى الناس جميعاً، بل أكد البيان الإلهي ذاته هذه الحقيقة في قوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}

الحاقة: 44-47. ولذلك يفرض المنطق علينا دراسة حياته من خلال هذه الهوية النبوية، لنستكشف أدلة صدق نبوته.

أسس الدراسة الصحيحة للسيرة:

الشمولية: دراسة جميع جوانب حياته: النشأة، الأخلاق، الحياة الشخصية والعائلية، السلم والحرب، التعامل مع الأصدقاء والأعداء.

الموضوعية: اتباع المنهج العلمي في نقد الروايات وتحري الدقة في النقل، بالاعتماد على قواعد الإسناد وشروط الصحة.

الغاية: الوصول إلى حقيقة نبوته وصدق الوحي في حياته، لنستيقن بأنه لم يشرع من تلقاء نفسه، بل كان أميناً على تبليغ وحي الله.

فبهذه الدراسة المتجردة ندرك عظمة مسؤوليتنا تجاه شرع الله تعالى رعاية وتنفيذاً.

الحكمة من بعثة النبي في الجزيرة العربية:

قبل الخوض في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، يجدر بنا أن نتأمل الحكمة الإلهية في اختيار الجزيرة العربية مهداً للرسالة الخاتمة، والعرب حاملين لها. وهذا يستلزم فهم خصائص العرب وطباعهم، وطبيعة المنطقة الجغرافية التي عاشوا فيها، ومقارنة ذلك بما كانت عليه الأمم المعاصرة لهم.

أحوال الأمم المجاورة قبيل الإسلام:

1- دولة فارس: سادتها الديانة الثنوية القائمة على عبادة النار، وتقديس الأكاسرة حيث كانوا يعتبرون أنفسهم من سلالة إلهية، وانتشرت بينهم الفلسفات المنحلة كالزرادشتية التي أباحت زواج المحارم، والمزدكية التي حلت النساء والأموال، فعمّ الانحلال الأخلاقي.

2- دولة الروم: سيطرت الخلافات العقائدية العقيمة بين الطوائف النصرانية، مع الروح الاستعمارية والوحشية في الطباع، حيث كانت وسائل التسلية مثل مصارعة العبيد مع الوحوش المفترسة. كما انتشر الفقر والظلم الاقتصادي والانحلال الخلقي.

3- اليونان والهند: غرقت اليونان في الخرافات والأساطير الكلامية العقيمة، بينما عانت الهند من التدهور الديني بسبب تعدد المعبودات والتدهور الأخلاقي بسبب نظام الطبقات البشع الذي جعل طبقة "الشودر" المنبوذين أحط من البهائم.

السبب الجذري للأزمة:

إن العلة المشتركة بين هذه الحضارات أنها قامت على القيم المادية وحدها، دون مثل أعلى روحي يقود مسارها. فالحضارة بغير هدى إلهي تصير وسيلة للشقاء والاضطراب، بينما تكون - مع الهدى الرباني - سبيلاً للسعادة الكاملة.

أوضاع الجزيرة العربية قبل البعثة:

عاش العرب في بيئة تتمثل في:

- الشرك بالله مع الاعتراف به خالقاً، كما قال تعالى: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} الزمر: 3، تفشي العادات المنحرفة كوأد البنات، انتشار الخمر والميسر والربا، أنماط زواج شاذة مثل نكاح الاستبضاع ونكاح الرهط.

ومع ذلك فمقارنة بالأمم المجاورة التي كانت تعاني من انحطاط أخلاقي وفكري شديد فقد تميز عرب الجزيرة بفطرة سليمة لم تشبها فلسفات منحرفة، كما وصفهم القرآن: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} الجمعة: 2.

ينضاف إلى ذلك أسرار أخرى تتجلى من خلالها الحكمة الإلهية في اختيار هذه البيئة النقية لتنطلق منها الرسالة العالمية، محافظة على أصالتها، قادرة على الانتشار، بعيدة عن شبهات التأثير بالحضارات المنحرفة وهي:

- الوسطية الجغرافية: موقع الجزيرة المتوسط سهل انتشار الدعوة في جميع الاتجاهات.

- بيئة أمية: حماية للدعوة من شبهة التأثير بالحضارات الأخرى.

- وجود البيت الحرام: تحقيقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام وكونها مهبط الوحي الأول.

- خصائص اللغة العربية: مؤهلات فريدة جعلتها أصلح اللغات لحمل الرسالة الخاتمة.

خاتمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلاقة دعوته بالرسالات السابقة

اجمع المسلمون على أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، وقد بين ذلك بقوله: (مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) رواه البخاري ومسلم.

العلاقة بين دعوته ودعوات الأنبياء السابقين

أولاً: وحدة الدين

إن الدين الحق واحد عبر العصور، وهو الإسلام، الذي بعث به جميع الأنبياء:

- إبراهيم وإسماعيل ويعقوب: {أَسْلِمَ} قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ { البقرة: 131.

- عيسى والحواريون: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران: 52.

- التأكيد القرآني: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران: 19.

ثانياً: وحدة العقيدة

لم يختلف مضمون العقيدة عبر الرسالات السماوية، فجميع الأنبياء دعوا إلى:

. - الإيمان بوحداية الله تعالى وتنزيهه

- الإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار.

وأكد القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } الشورى 13.

ثالثاً: تطور التشريع

اختلفت الشرائع بين الأنبياء بحسب حاجة الأمم وتطور الزمن، وذلك لأن:

- التشريع مرتبط بمصالح العباد المتغيرة.

- كل رسالة سابقة كانت موجهة لأمة محددة.

- الشرائع تتطور بالنسخ والتكميل.

كما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: { وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ } آل عمران: 50.

فالرسالة المحمدية تمثل الكمال النهائي للناسخ والخاتم للرسالات السماوية، جامعة بين أصالة العقيدة وكمال التشريع، لتكون صالحة لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

الجاهلية وما كان فيها من بقايا الحنفية:

الإسلام امتداد للحنيفية الإبراهيمية

جاء الإسلام امتداداً للحنيفية السمحة التي بُعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ } الحج: 78، وقوله سبحانه: { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } آل عمران: 95.

الانحراف عن التوحيد:

لم يكن العرب - وهم ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام - بمعزل عن هذا الإرث النبوي، فقد توارثوا ملة أبيهم في توحيد الله وتعظيم البيت الحرام، لكن بمرور الزمن وانتشار الجهل، دخل عليهم الشرك على يد عمرو بن لحي الخزاعي، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه أول من غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان" (رواه ابن إسحاق).

كيفية انتشار الوثنية:

ذكر ابن هشام كيف خرج عمرو بن لحي إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فسألهم عنها فأخبروه أنهم يستمطرونها فتمرطهم، ويستنصرونها فتنصرهم، فطلب منهم صنماً ليحمله إلى أرض العرب، فأعطوه صنماً يقال له "هبل"، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته.

بقايا التوحيد:

رغم انتشار الشرك، بقي نفر قليل متمسك بالتوحيد على ملة إبراهيم، يعتقدون بالبعث والحساب، ويكرهون عبادة الأوثان، ومن أشهرهم: قس بن ساعدة الإيادي، ورثاب الشني، وبحيرا الراهب. وهكذا ظلت جذوة التوحيد خامدة تحت الرماد، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليعيد العرب إلى دين أبيهم إبراهيم، مكماً له، وخاتماً للرسالات.

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- ما الأهداف العلمية والتربوية من دراسة فقه السيرة؟
- 2- كيف تطورت كتابة السيرة من الرواية الشفهية إلى التأليف المستقل؟
- 3- ما الفرق بين منهج المحدث ومنهج المؤرخ في التعامل مع أخبار السيرة؟
- 4- كيف تسهم معرفة مصادر السيرة في بناء قراءة علمية للأحداث؟

المحاضرة الثانية حياة النبي قبل البعثة وبدء الوحي

مضامين المحاضرة

١ - نسب النبي صلى الله عليه وسلم وولادته ورضاعته ونشأته في رعاية الله.

٢ - رحلته إلى الشام وعمله في رعي الغنم والتجارة وزواجه من خديجة رضي الله عنها.

٣ - مشاركته في بناء الكعبة وما ظهر فيها من حكمته ومكانته بين قومه.

٤ - خلوته في غار حراء وبدء نزول الوحي ودلالاته العقدية والتربوية.

نسبه صلى الله عليه وسلم وولادته ورضاعته: 1

ينتهي نسب النبي صلى الله عليه وسلم المتفق عليه إلى عدنان: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شيبه الحمد - بن هاشم بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وهذا القدر من نسبه هو الذي اتفق عليه أهل الأنساب والسير، أما ما فوق عدنان فموضع اختلاف، مع اتفاقهم على أن عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وقد روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

ولد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين في عام الفيل. واختلف أهل السير في تعيين اليوم والشهر؛ واشتهر أنه اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، من غير اتفاق يحسم الخلاف.

ولد النبي صلى الله عليه وسلم يتيم الأب؛ إذ توفي أبوه عبد الله وأمه حامل به على المشهور. فكفله جده عبد المطلب، واسترضع له - على عادة أشراف العرب - حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية.

1 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص40-43؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص156-180؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص94-121.

وتذكر روايات السيرة أن بني سعد كانوا في سنة جدب، وأن الخير ظهر في بيت حليلة بعد أخذه. وثبت في صحيح مسلم خبر شق صدره وهو صغير، ثم رده حليلة إلى أمه بعد ذلك. توفيت أمه آمنة بالأبواء وهو ابن ست سنين، فكفله جده عبد المطلب. ثم توفي جده وهو ابن ثماني سنين، فانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب.

العبر والعظات

أولاً: يظهر من نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى فضل العرب على سائر الأمم، وفضل قريشاً على سائر القبائل، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم، وغيره من الأحاديث الدالة على هذا التفضيل. ومن ذلك ما رواه الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً.

ثانياً: لم يكن يتم النبي صلى الله عليه وسلم وفقدانه لأمه وجده مجرد صدفة، بل حكمة إلهية بالغة، ومن أهمها:

- قطع الطريق على المبطلين الذين قد يزعمون أن دعوته نشأت بتأثير من أهله وذويه.

- تنشئته بعيداً عن تأثير الزعامة والمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها جده عبد المطلب.

- تربيته تحت رعاية الله مباشرة، بعيداً عن مظاهر الترف والدنيا.

- تجريد النبوة من أي شبهة طلب للمجد الدنيوي أو الزعامة القبلية.

ثالثاً: ما اتفق عليه رواة السيرة من بركة بسبب حلول النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حليلة السعدية، حيث تحول القحط إلى خصب، والجذب إلى خضرة، والجفاف إلى لبن متدفق مما يدل على علو مكانته عند ربه منذ طفولته. وكان ذلك إرهاباً مبكراً لرحمة الله بهذه الأمة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} سورة الأنبياء 107.

رابعاً: حادثة شق الصدر التي وقعت له في بادية بني سعد من دلائل نبوته وإرهاصات اختيار الله له، وقد رواها الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان، فشق قلبه، واستخرج منه علقة فقال: "هذا حظ الشيطان منك"، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم وأعادته إلى مكانه.

رحلته الأولى إلى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق 2

تذكر كتب السيرة أن أبا طالب خرج بالنبي صلى الله عليه وسلم في تجارة إلى الشام وهو غلام، وكان عمره نحو اثني عشرة سنة، وأن الركب نزل ببصرى، حيث كان بجيرا الراهب.

وجاء في خبر بجيرا أنه لاحظ في الغلام علامات، وسأل أبا طالب عنه، ثم حذره عليه وأشار عليه أن يرجع به إلى مكة. وقد تلقى أصحاب السير هذا الخبر بالذكر، غير أن أهل الحديث تكلموا في بعض طرقه وتفصيله؛ لذلك يورد في باب أخبار السيرة دون الجزم بجميع جزئياته.

ثم عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في رعي الغنم، وثبت في صحيح البخاري قوله: «كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة». وتروي بعض كتب السير أخباراً في حفظ الله له من لهُ الجاهلية، وهي دون حديث الرعي في القوة، فيستأنس بها ولا يبنى عليها حكم مستقل.

العبر والعظات

في رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشام مع عمه أبي طالب - وهو في الثانية عشرة من عمره - دروساً وعبراً عظيمة، نوجزها فيما يلي:

أولاً: دلائل النبوة من لقاء بجيرا الراهب

- حين نزل الركب ب "بصرى"، أبصر الراهب بجيرا النبي صلى الله عليه وسلم فعرفه بصفاته التي وجدها في كتب النصارى، وحذر عمه من اليهود قائلاً: (إنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم)

- وهذا يدل على أن أهل الكتاب كانوا يعلمون ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ما جاء في التوراة والإنجيل من نعوته وصفاته.

- ومن الأدلة على ذلك ما كان يحدث من اليهود في المدينة، حيث كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج به، فلما بُعث جحدوا نبوته، فأنزل الله: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} البقرة: 89.

2 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص44-45؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص179-183؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص120-126.

ثانياً: عظمة التكسب برعي الغنم.

- إقبال النبي صلى الله عليه وسلم على رعي الغنم في شبابه يحمل ثلاث دلالات عظيمة

1- الذوق الرفيع والبر: مع عناية عمه به، إلا أنه ما أن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى بذل جهده لرفع المؤنة عن عمه، وهذا غاية الشكر والبر.

2- كرامة الكسب باليد: بيان أن خير المال ما اكتسبه الإنسان بكده وجهده، وشر المال ما حصل عليه بلا تعب ولا نفع للمجتمع.

3- استقلالية الداعية: حتى لا يكون للداعية تبعية لأحد في معيشتة، فيصدع بالحق غير مبالٍ بمنزلة أحد.

ثالثاً: حفظ الله لنبيه في شبابه - في قصة همّة صلى الله عليه وسلم باللّهُو مع الشباب مرتين، ثم منعه الله تعالى، دالتان عظيمتان:

1- بشريته الكاملة: كان يحس بما يحس به الشباب من ميول فطرية.

2- العصمة الإلهية: مع هذه البشرية، فقد حفظه الله من كل سوء، وهي عناية إلهية خاصة لا بالوسائل التربوية المعتادة، إذ من حوله كانوا غارقين في ضلال الجاهلية.

فسبحان من هيا نبيه للرسالة، فرباه وعصمه وأدبه، حتى أخرجه للناس هادياً ومبشراً ونذيراً.

تجارته بمال خديجة وزواجه منها: 3

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم فيه. فلما بلغها ما عرف به النبي صلى الله عليه وسلم من صدق وأمانة عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام.

فخرج إلى الشام في مالها، وتذكر روايات السيرة أنه صحبه غلامها ميسرة، وأن الرحلة حققت ربحاً. وما زاد على أصل التجارة من علامات شاهدها ميسرة يروى في كتب السير بدرجات متفاوتة.

ثم رغبت خديجة رضي الله عنها في الزواج منه، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم، وخطبها أعمامه من عمها عمرو بن أسد، على ما أورده ابن إسحاق وأصحاب السير.

3 موضوع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص48-50؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص186-191؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص131-132.

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة. والمشهور في كتب السيرة أن خديجة كانت بنت أربعين سنة، وقيل دون ذلك؛ إذ تعددت الروايات في سننها عند الزواج. وكانت قد تزوجت قبله عتيق بن عائذ، ثم أبا هالة التميمي.

العبر والعظات

أولاً: مكانة خديجة رضي الله عنها.

- كانت خديجة رضي الله عنها خير نساء زمانها، فقد عرفت منذ الجاهلية بين جماعتها وقومها بلقب العفيفة الطاهرة، وكذلك كان حالها في الإسلام، فجاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد)

- وقد حفظ التاريخ وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لها رغم وفاتها، فكان يذكرها بالخير ويكرم صديقاتها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وإني لم أدركتها).

ثانياً: حكمة زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة وبرهان النبوة في سيرته الزوجية.

- تجاوز النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الزواج كل الدوافع المادية والشهوانية، فقد تزوج خديجة وهي في الأربعين من عمرها وهو في الخامسة والعشرين، وعاش معها ربع قرن كامل دون أن يفكر في غيرها.
- في هذا ردّ قاطع على من اتهموه صلى الله عليه وسلم بشهوانية الزواج، فالشهواني لا يصبر على زوجة تكبره كل هذه السنوات وهو يعيش في بيئة جاهلية ليس فيها محرمات.
- لقد اختار خديجة لصفاتها النبيلة وشرفها بين قومها، وكانت تلقب في الجاهلية بالطاهرة العفيفة، فأمنت به حين كذبوه، وواسته بمالها حين حرمه الناس، ورزق منها الولد.

ثالثاً: الرد على المغرضين.

- يحاول بعض المبشرين والمستشرقين التشكيك في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من خلال تعدد زيجاته في مرحلة متأخرة من عمره، وهم يغفلون أن الشهواني لا ينتظر إلى هذا العمر ليبحت عن متعته.
- إن زواجه صلى الله عليه وسلم بعد خديجة كان لحكم عظيمة، منها المصاهرة لقبائل العرب لنصرة الدعوة، ورعاية الأراذل، وتكريم الصحابييات، وكلها حكم تزيد المؤمنين إيماناً بعظمة نبيهم.

اشتراكه صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة 4

الكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله وتوحيده، وقد رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعدها بأمر الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127).

ثم وهنت جدران الكعبة بفعل الزمن والسيول، فعزمت قريش قبل البعثة على إعادة بنائها، واشترطت ألا تدخل في نفقتها إلا مالاً طيباً، تعظيماً لحرمة البيت.

شارك رسول الله صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة ونقل الحجارة، وكان عمره خمساً وثلاثين سنة على المشهور. وثبت في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم والعباس كانا ينقلان الحجارة عند بناء الكعبة.

ولما اختلفت قبائل قريش فيمن يضع الحجر الأسود وكاد الخلاف يفضي إلى القتال، رضوا بتحكيم أول داخل عليهم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم. فوضع الحجر في ثوب، وأمر رؤساء القبائل أن يرفعوه جميعاً، ثم وضعه بيده في مكانه، فأنتهى النزاع بحكمته.

العبر والعظات

في بيان مكانة الكعبة المشرفة وعظمتها دروساً وعبراً عظيمة، نوجزها فيما يلي:

أولاً: عظمة البيت الحرام ومكانته

- شرف الله الكعبة بأن جعلها أول بيت وضع للناس لعبادته وتوحيده، واختار لبنائها خليله إبراهيم عليه السلام، لتكون شعاراً للتوحيد الخالص ومثابة للناس وأمناء.
 - وقد قضت حكمة الله أن يكون هذا البيت ناسخاً لبيوت الشرك والأصنام، ومعلناً لبطلان عبادة غير الله.
- حقيقة الكعبة وعلاقتها بالتوحيد

4 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص51-55؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص191-198؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص93-95.

- الكعبة - على قداستها - حجارة لا تضر ولا تنفع، لكن الله جعلها رمزاً للتوحيد وشعاراً للعبادة الخالصة، فيها يتجسد معنى العزة لله وحده، حيث يقف المؤمن فيها خاضعاً لخالق الكون لا لأي مخلوق.

الكعبة رابطة للأمة

- جعل الله الكعبة رابطة للمسلمين يتعارفون في ظلها، ويجتمعون على كلمة التوحيد، مهما تباعدت أوطانهم واختلفت ألسنتهم، فهي تجسد وحدة الأمة وتوحيدها لربها، وترد على كل أشكال الشرك والضلال.

تحقيق معنى الآية الكريمة:

- في قوله تعالى: {إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا} تجسيد لحكمة الله في جعل هذا البيت ملجأً آمناً للناس.

- مركزاً للتوحيد والعبادة.

- رمزاً لوحدة المسلمين.

- ناسخاً لبيوت الشرك والضلال.

ثانياً: حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في تدبير الأمور

حادثة تدبير النبي صلى الله عليه وسلم للخلاف الذي كاد يوقع القتال بين قريش، لعبراً عظيمة نوجزها فيما يلي:

حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في حل النزاعات

- اشتعل الخلاف بين قبائل قريش حول من يكون له شرف وضع الحجر الأسود، وكاد أن تتحول إلى حرب دامية، حيث تعاقدت بنو عبد الدار وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم في جفنة الدم، بقي القوم على هذا الحال أربع أو خمس ليالٍ دون حل، حتى اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب المسجد، فكان محمدٌ صلى الله عليه وسلم. بحكمته البالغة اقترح أن ييسط كل زعيم قبيلة طرفاً من ثوب، ثم وضع هو الحجر فيه ورفعوه جميعاً، ثم وضعه بيده الشريفة في مكانه.

مصدر هذه الحكمة

- ينبغي أن نرد هذه المزية في النبي صلى الله عليه وسلم إلى اختيار الله له للرسالة والنبوة قبل أن نردها إلى العبقرية الفطرية؛ الأساس في تكوينه صلى الله عليه وسلم أنه رسول ونبي، ثم تأتي المزايا الأخرى من ذكاء ودهاء مبنية على هذا الأساس.

منزلته الرفيعة بين قومه

- كان صلى الله عليه وسلم ملقباً عند قريش بالصادق الأمين قبل البعثة، كان محبوباً من جميع طبقات قريش، يثقون بصدقه إذا حدث، وبأخلاقه إذا عومل، وبإخلاصه إذا استعين به.

- وهذا يوضح مدى العناد والحقد اللذين ملأ قلوبهم بعد البعثة، حيث قابلوا رسالته بالإيذاء رغم معرفتهم بأخلاقه وصدقه.

اختلاؤه في غار حراء 5

لما قارب النبي صلى الله عليه وسلم الأربعين حبب إليه الخلاء، فكان يعتزل في غار حراء، وهو في جبل يقع شمال شرقي مكة، ويتحنن فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود لمثلها، حتى جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته.

العبر والعظات

خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ودلالاتها:

1- لا يكتمل إسلام المرء مهما تحلى بالفضائل وأكثر من العبادات، حتى يخلو بنفسه ساعات يحاسبها، ويتفكر في آيات الكون ودلائل عظمة الخالق.

2- تربية محبة الله في القلب هي منبع التضحية والجهاد وأساس أي دعوة صادقة، ومحبة الله لا تأتي من الإيمان العقلي المجرد، فالأمور النظرية وحدها لا تهز القلوب. ولو كان الإيمان العقلي كافياً، لكان المستشرقون - مع علمهم - أول المؤمنين، فلم يضح أحد بنفسه إيماناً بمسألة رياضية.

5 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص56-57؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص232-238؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص135-137.

- 3- وسيلة محبة الله - بعد الإيمان به وأداء فرائضه - هي كثرة التفكير في جلاله وعظمته، ثم الإكثار من ذكره بالقلب واللسان، وهذا كله لا يتم إلا بالعزلة الواعية والخلوة المتقطعة، بعيداً عن ضوضاء الدنيا وشواغلها.
- 4- فرق الإمام الشاطبي بين دوافع الخلق للعمل طاعة لله تعالى، فميز بين دوافع العامة الذين يعملون بحكم عقد الإيمان، ودوافع الخواص التي هي أعمق:
- فدافع الخوف: سوط سائق
 - ودافع الرجاء: حاد فائد
 - بينما دافع المحبة: تيار حامل، يسهل على صاحبه الصعب ويقرب البعيد.
- وقد أجمع المسلمون على ضرورة اتخاذ الوسائل لتحقيق هذه الأحوال القلبية، وسموها بأسماء مختلفة مثل "التصوف" أو "الإحسان" أو "علم السلوك".
- 5- الخلوة وسيلة لا غاية فالخلوة التي كان يمارسها النبي صلى الله عليه وسلم كانت إحدى هذه الوسائل النافعة. ولكن لا ينبغي فهمها فهماً شاذاً بالانقطاع الكامل عن الناس واتخاذ الكهوف مسكناً، فهذا مخالف لهدية صلى الله عليه وسلم. إنما المراد هو اتخاذ الخلوة دواء مؤقتاً لإصلاح الحال، والدواء لا يؤخذ إلا بقدر، فإذا زاد عن حده انقلب إلى داء.
- 6- يجب عدم الاحتجاج بعزلة بعض الخاصة ممن استمر من الصالحين على الخلوة فإنما هذا أمر خاص بحاله، ولا يكون عمله حجة على جميع الناس.

بدء الوحي 6

روت عائشة رضي الله عنها أن أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يَتَحَنَّثُ في غار حراء الليالي ذوات العدد، حتى جاءه الملك فقال: «اقرأ». فقال: «ما أنا بقارئ»، فغطه ثلاث مرات، ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

6 موضوع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص58-63؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص238-242؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص135-159.

الَّذِي خَلَقَ ﴿٥٥﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٥٦﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٥٧﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٥٨﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥٩﴾ (العلق: 1-5).

فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، ودخل على خديجة رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني». فلما ذهب عنه الروح أخبرها الخبر وقال: «لقد خشيت على نفسي». فقالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

ثم انطلقت به خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر في الجاهلية وعلم من كتب أهل الكتاب. فلما سمع خبره قال: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى»، وتنى أن يكون حياً قوياً حين يخرج قومه. فتعجب النبي صلى الله عليه وسلم من إخراجهم له، فأخبره ورقة أن من جاء بمثل ما جاء به عودي، ووعدته بالنصرة إن أدرك ذلك اليوم.

ثم فتر الوحي مدة اختلفت الروايات في تحديدها، ولا يثبت في النصوص الصحيحة تعيين مدة طويلة محددة لها، ثم عاود الوحي نزوله.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في استئناف الوحي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الملك الذي جاءه بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فرعب منه ورجع يقول: «زملوني زملوني»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ﴿٣﴾ وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ (المدثر: 1-5)، فحمي الوحي وتتابع.

العبر والعظات

أولاً: حكمة بدء الوحي وأهميته في الإيمان بالنبوة

يُعد حديث بدء الوحي الأساس الذي تُبنى عليه جميع حقائق الدين وعقائده، وفهمه هو المدخل لليقين بصدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. وقد أولى المشككون موضوع الوحي اهتماماً خاصاً لمحاولة الطعن في مصدريته، بدعاوى مختلفة كالإلهام النفسي أو الصرع أو التأثير بالرهبان.

ثانياً: الحكمة من كيفية بدء الوحي:

1- مفاجأة الوحي: جاء الوحي مفاجئاً للنبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء، مما يدل على أنه لم يكن متشوقاً للرسالة، وأن الوحي حقيقة خارجية وليست نتاج تأمل داخلي.

2- الخوف والرعب: شعور النبي صلى الله عليه وسلم بالخوف والرعب يؤكد أنه لم يكن متوقعاً هذا اللقاء، كما في قوله: فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده.

3- استشارة ورقة بن نوفل: ذهابه إلى ورقة وتصديقه لنبوته يؤكد اتصال هذه الرسالة بالرسالات السابقة.

4- انقطاع الوحي: فترة الانقطاع الطويلة وشعوره بالقلق يدلان على أن الوحي ليس تحت سيطرته، بل هو تابع لإرادة الله تعالى.

ثالثاً: الدلائل على حقيقة الوحي:

1- التمييز بين القرآن والحديث: حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تسجيل القرآن فور نزوله وتمييزه عن كلامه الشخصي.

2- انتظار الوحي في الإجابات: كان يصمت في بعض المسائل حتى ينزل الوحي بالإجابة، كما في قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} الإسراء: 85.

3- الأمية والنبوة: كون النبي صلى الله عليه وسلم أمياً يدحض ادعاءات من زعموا أنه تلقى العلم من الكتب السابقة، كما قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} العنكبوت: 48.

4- الصدق والأمانة: سيرته المعروفة بالصدق قبل البعثة تدل على صدقه في تبليغ الوحي، وقد طمأنه الله بقوله: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ} يونس: 94، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا أشك ولا أسأل).

فهذه الحُكم والدلائل تظهر بوضوح أن الوحي حقيقة إلهية، وليست نتاج تفكير بشري، مما يقطع الطريق على شبهات المشككين ويؤكد صدق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أسئلة للمراجعة والتقويم

1- ما أبرز مظاهر العناية الإلهية بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة؟

2- ما الدلالات التربوية المستفادة من رعي الغنم والعمل في التجارة؟

3- كيف كشف موقف الحجر الأسود عن حكمة النبي ومكانته؟

4- ما أثر خلوة حراء في التهيئة النفسية لتلقي الوحي؟

المحاضرة الثالثة مراحل الدعوة في مكة

مضامين المحاضرة

- ١ - مراحل الدعوة السرية والجهرية وحكمة التدرج في تبليغ الرسالة.
- ٢ - صور إيذاء المسلمين وثباتهم وسياسة قريش في المفاوضة والمقاطعة.
- ٣ - الهجرة إلى الحبشة وعام الحزن ورحلة الطائف وما تضمنته من دروس.
- ٤ - معجزة الإسراء والمعراج ودلالاتها الإيمانية والتشريعية.

مراحل الدعوة الإسلامية في حياة النبي عليه الصلاة والسلام

مرت الدعوة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، من بداية بعثته إلى وفاته، بأربع مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: كانت الدعوة سرية، واستمرت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: أصبحت الدعوة جهرياً، مقتصرة على الخطاب والبيان اللغوي دون قتال، واستمرت هذه المرحلة حتى الهجرة.

المرحلة الثالثة: كانت الدعوة جهرياً مع شرعية القتال ضد المعتدين والبدائين بالقتال أو الظلم، واستمرت هذه المرحلة حتى توقيع صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: كانت الدعوة جهرياً مع محاربة كل من وقف في سبيل الدعوة بالسيف واعتدى. وكانت هذه المرحلة الأخيرة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وأحكام الجهاد في الإسلام.

الدعوة سرا 7

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته بتبليغ من عرف فيهم رجاحة العقل وقرب الصلة وحسن الاستعداد لقبول الحق، فدعا إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام. وكان الاتصال في هذه المرحلة فردياً، وكانت اجتماعات المؤمنين وعبادتهم بعيدة عن أعين قريش اتقاءً لأذاها، من غير أن يعني ذلك كتمان أصل الرسالة عمن يدعى إليها.

7 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص64-68؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص239-261؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج3، ص24-35.

وكانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أول من آمن به وصدقته، وكان من السابقين إلى الإسلام علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم. ودعا أبو بكر من وثق بهم، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم من السابقين.

وكان المسلمون يلتقون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتعلمون منه القرآن وأمر الدين، ويخرج بعضهم إلى شعاب مكة للصلاة بعيداً عن المشركين. ثم اتخذت دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا موضعاً لاجتماعهم وتعليمهم، وتشير روايات السيرة إلى أن عدد المسلمين في هذه المرحلة كان قريباً من الأربعين، مع اختلافها في ضبط العدد وترتيب إسلام بعض الأفراد.

العبر والعظات

أولاً: وجه السرية في بدء الدعوة النبوية

لا ريب أن تكتم النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته لم يكن نابغاً من خوف على نفسه، فهو المبلغ عن ربه الذي يوقن بحفظه له، ولما تردد لو أمره الله بالجهر من أول يوم. ولكن الحكمة كانت في تعلُّم الدعاة من بعده مشروعية الأخذ بالأسباب والحيلة، بما لا يتعارض مع التوكل على الله. فكان هذا الأسلوب من السياسة الشرعية بصفته إماماً وليس من التبليغ بصفته نبياً.

وبناء عليه، فإن للدعاة في كل عصر مرونة في اختيار الأسلوب (سرية أو جهراً، ليناً أو قوة) وفقاً لما تقتضيه الظروف ومصلحة الدعوة، كما حددتها مراحل السيرة النبوية.

ويؤكد الفقهاء على ذلك، فيقرر العز بن عبد السلام أنه إذا خيف على المسلمين الهلاك دون تحقيق نكاية في العدو، وجب الانسحاب حفظاً للأنفس، لأن في الثبوت "مفسدة محضة". وهذا الانسحاب الظاهري هو في حقيقة الأمر حفظ لمصلحة الدين نفسه، بحماية القاعدة البشرية للدعوة من الإبادة.

وبناء عليه يجب الإسراع بالدعوة إذا كان الجهر يضر بها، ولا يجوز الإسراع إذا أمكن الجهر وكان مفيداً. ولا تجوز المسالمة إذا توفرت أسباب القوة والدفاع، ولا يجوز القعود عن الجهاد إذا توافرت أسبابه.

ثانياً: الحكمة من إسلام المستضعفين الأوائل

ظاهرة إسلام الفقراء والضعفاء في بداية الدعوة هي سنة الله في دعوات الأنبياء، كما تشهد بذلك الآيات:

- في قوم نوح: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ﴾ هود: 27.

- في أتباع موسى: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ الأعراف: 137.

- في قوم صالح: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا...﴾ الأعراف: 75-76.

والسر في ذلك أن حقيقة الدين هي الخروج من سلطان الناس إلى سلطان الله، وهي رسالة تصطدم أول ما تصطدم بسلطان المتألهين في الأرض، بينما تتناسب مع حال المستضعفين الذين لا يملكون ما يخسرونه سوى قيود العبودية لغير الله.

وهذا لا يعني أن إيمانهم كان رد فعل عاطفياً، بل كان إيماناً حقيقياً انشرفت له صدورهم، بينما صدَّ الزعماء كبرهم ومصلحتهم. وقد عبر الربيع بن عامر عن هذه الحقيقة في حوار مع رستم فقال: (جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده).

فالإيمان بالله وحده يمنح المستضعف اعتداداً وقوة تجعله لا يهاب سلطاناً غير سلطان الله، مما يملأ قلبه نشوة وغبطة لا يعرفها المستعبدون لغير الله.

الجهر بالدعوة 8

لما دخل الناس في الإسلام أفراداً من الرجال والنساء وفشا خبره بمكة، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن الدعوة ويبين ما جاء به. وذكر ابن إسحاق أن المدة بين ابتداء البعثة والأمر بإظهار الدعوة كانت نحو ثلاث سنين.

فنزل قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: 94)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الشعراء: 214-215).

فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذ أمر ربه بإنذار قومه عامة، ثم خص أقرباءه بالبلاغ المباشر، تأكيداً لمسؤولية الداعية تجاه أهله وعشيرته.

8 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص68-72؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص261-269؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج3، ص34-44.

فصعد على الصفا ونادى بطون قريش، فلما اجتمعوا قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت سورة المسد، والحديث ثابت في الصحيحين.

وجمع عشيرته الأقربين فأنذرهم، وخاطب بطون قريش وفاطمة رضي الله عنها بأن ينقذوا أنفسهم من النار، وبين أنه لا يملك لهم من الله شيئاً، مع بقاءه على صلة الرحم، وهو حديث ثابت في الصحيحين بألفاظ متقاربة.

رد فعل قريش:

قابل أكثر زعماء قريش الدعوة بالرفض، واحتجوا بما وجدوا عليه آباءهم. فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى تحرير العقل من التقليد، وبين أن المعبودات التي اتخذوها من دون الله لا تملك ضرراً ولا نفعاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة: 104).

ولما عاب عبادة الأصنام وسفه الاحتجاج بمجرد الموروث اشتدت معارضة قريش له، وثبت معه من هداه الله إلى الإسلام، كما قام عمه أبو طالب بحمايته ومنع قومه من تسليمه إلى خصومه، مع بقاءه على دين قومه.

العبر والعظات

في هذا المقطع من السيرة النبوية تبرز ثلاث دلالات رئيسية

أولاً: مفاجأة الدعوة وردة الفعل المعادية.

عندما أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته، فاجأ قريشاً والعرب بما لم يتوقعوه. وقد تجلّى ذلك في ردة فعل أبي لهب والمشرّكين من زعماء قريش الذين اتفقوا على معاداته ومقاومته. وهذا الرد القاطع يدحض ادعاءات من يحاولون تصوير الإسلام على أنه نتاج للقومية العربية أو تمثيل لمطامح العرب في ذلك الوقت.

ثانياً: الحكمة من تخصيص الإنذار للأقربين

- رغم وجود الأمر العام بالجهار بالدعوة في قوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)، فقد خصص الله إنذار الأقربين لبيان درجات المسؤولية.

- المسؤولية تجاه النفس: وهي أدنى الدرجات، وقد تحققت خلال فترة الوحي الطويلة التي اطمأن فيها النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدق نبوته.

- المسؤولية تجاه الأهل والأقارب: وهي الدرجة الثانية التي يشترك فيها كل مسلم تجاه أسرته.

- المسؤولية تجاه المجتمع: وهي أعلى الدرجات ويحملها العلماء والحكام كوارثين للأنبياء.

ثالثاً: محاربة الإسلام للتقاليد الموروثة

عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه أسرهم للتقاليد الموروثة دون تفكير في صلاحها. فالإسلام يقوم على العقل والمنطق السليم، بينما تقوم التقاليد على التقليد المجرد والاتباع دون بحث. وبهذا يكون الإسلام قد حارب جميع التقاليد المتعلقة بالعقيدة والنظم والأحكام، لأنها لا تقوم على أساس المصالح المعقولة التي تدرك بالتفكير والتدبر.

هذه الدلالات الثلاث توضح منهج الدعوة الإسلامية وأسسها العقلية، وتبين مسؤوليات المسلم تجاه نفسه وأهله ومجتمعه.

الإيذاء 9

اشتدت قريش في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الجهر بالدعوة. وثبت في صحيح البخاري أن عقبة بن أبي معيط خنقه بثوبه وهو يصلي عند الكعبة، فدفعه أبو بكر رضي الله عنه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. وثبت فيه أيضاً أن عقبة ألقى سلا جزور على ظهره وهو ساجد، فجاءت فاطمة رضي الله عنها فأزالته عنه.

وتذكر كتب السيرة صوراً أخرى من الأذى اللفظي والبدني، منها السخرية والغمز واللمز، ورمي التراب على رأسه، وكان يرجع إلى بيته فتقوم إحدى بناته بإزالة التراب عنه، فيسليها ويطمئنها إلى حفظ الله له.

أما أصحابه رضي الله عنهم فقد تعرض المستضعفون منهم للتعذيب، ومن أشهرهم بلال وآل ياسر وخباب بن الأرت. وروى البخاري أن خباباً شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم شدة ما يلقون، فذكر له ما أصاب المؤمنين قبلهم، وبشره بأن الله سيتم هذا الأمر حتى يأمن الراكب بين صنعاء وحضرموت، ودعاه إلى الصبر وعدم الاستعجال.

9 موضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص73-76؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص288-292، وص316-320، وص353-363؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص277-291.

العبر والعظات

في مشهد المعاناة التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من صنوف العذاب والإيذاء، يبرز سؤال جوهرى: لماذا يقع هذا العذاب بأهل الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله وهم جنوده ودعاة دينه؟

أولاً: حكمة الابتلاء في سنن الله تعالى

إن الإجابة تكمن في ثلاث حقائق أساسية تحكم سُنَّة الله في خلقه:

- 1- حقيقة العبودية والتكليف: فالإنسان خُلِق للعبادة، والعبادة بدورها تستلزم التكليف وتحمل المشاق. فما يلاقيه الدعاة والمجاهدون ليس انحرافاً عن الطريق، بل هو جزء من تحقيق معنى العبودية لله تعالى.
- 2- حكمة الامتحان والتمييز: لو قَبِلَ الله دعوى الإيمان باللسان فقط، لاستوى الصادق والكاذب. ولكن الابتلاء هو الميزان الذي يميز به الله الصادقين من الكاذبين، كما قال تعالى: {أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.
3- سنة الله في الأنبياء والأصفياء: هذه السنة الإلهية شملت جميع الأنبياء والمرسلين، فلم يسلم منهم أحد من الأذى. فمعاناة الصحابة تحت العذاب حتى الموت أو العمى ليست دليلاً على بعدهم عن الله، بل هي برهان على صدقهم وعلو مكانتهم.

ثانياً: رؤية جديدة للمعاناة

ينبغي للمسلم أن يغير نظرتة للمعاناة:

- فليست العقبات سدوداً تمنع الوصول، بل هي جزء من الطريق الطبيعي إلى الغاية، فيتقرب المسلمون إلى الله بما يجودونه من أذى، ويتسارع النصر كلما زاد الثمن المدفوع.

وهذا ما أوضحه النبي صلى الله عليه وسلم لخباب بن الأرت حين شكاه إليه شدة العذاب، فبشره بالنصر مؤكداً أن هذا الطريق المرسوم قد سلكه المؤمنون من قبل، وسيسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله.

ثالثاً: حكمة تأخر الفتوح

ولذلك لم تتحقق الفتوحات الكبرى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الأمة لم تكن قد دفعت كامل ثمن النصر بعد. فالمسألة ليست مرتبطة بشخص النبي، بل بصدق الأمة في التزامها بالعهد الذي قطعتة مع الله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ}.

فلاستبشار بالبيع الذي بايعوا به الله هو جوهر الفوز العظيم، والمعاناة في سبيله هي الدليل على صدق البيعة واستحقاق النصر.

سياسة المفاوضات 10

تروي كتب السيرة أن عتبة بن ربيعة عرض على قريش أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس إليه وعرض عليه المال والرياسة والملك والعلاج إن كان ما يأتيه عارضاً لا يملكه.

استمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى عتبة حتى فرغ، ثم تلا عليه صدر سورة فصلت، وفيها تقرير الوحي ووحدانية الله والإنذار بعاقبة الإعراض.

ومضى في القراءة حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ (فصلت: 13). وتذكر روايات السيرة أن عتبة ناشده الرحم أن يكف لما سمع من شدة الوعيد.

رجع عتبة إلى قومه بغير الوجه الذي ذهب به، وقال لهم إنه سمع قولاً ليس بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ونصحهم أن يخلوا بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين العرب؛ فإن ظهر كان ظهوره عزاً لهم، وإن أصابته العرب كفؤهم أمره، فاتهموه بأنه تأثر ببيانه.

محاولات التفاوض الأخرى:

تذكر كتب السيرة والتفسير أن قريشاً كررت عرض المال والنساء والجاه في مقابل ترك الدعوة أو الكف عن عيب آلهتهم، وأنها اقترحت لوناً من المساومة في العبادة، فجاءت سورة الكافرون حاسمة في نفي المساومة العقدية: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 6).

واجتمع نفر من أشرف قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم، فعرضوا عليه المال والسيادة والملك والعلاج. فأخبرهم أنه لم يأت طلباً لأموالهم ولا للشرف والملك، وإنما بعثه الله رسولاً، وأمره أن يكون بشيراً ونذيراً، وأنه ماض في تبليغ ما أرسل به.

10 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص76-81؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص292-313؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج3، ص64-74.

ثم تحولوا إلى طلب آيات حسية على جهة التعنت؛ فسألوه أن يوسع لهم أرض مكة، ويفجر لهم الأنهار، ويعث لهم بعض آبائهم، ويجعل له جنات وقصورًا وكنوزًا. وقد حكى القرآن جملة من هذه المطالب في سورة الإسراء (الآيات: 90-93)، وأمره أن يقرر لهم بشريته ورسالته.

فأجابهم بأنه لا يدعي التصرف في خزائن الله، ولم يبعث لتحقيق المقترحات المتعنتة، وإنما مهمته البلاغ والإنذار. وانتهت المفاوضات دون أن يتنازل عن شيء من أصل التوحيد أو مضمون الرسالة.

العبر والعظات

في هذا المشهد الذي عرضناه من سيرته صلى الله عليه وسلم ثلاث دلائل كل واحدة منها على جانب كبير من الأهمية:

أولاً: صدق نبوته وبرأته من الدوافع الدنيوية

- نفت المفاوضات مع مشركي قريش أن تكون دعوته صلى الله عليه وسلم طمعاً في ملك أو زعامة أو غنى.
- تؤكد بساطة عيشه صلى الله عليه وسلم ومعيشته كالفقراء تطابق كلامه عن عدم الاهتمام بالدنيا. قالت عائشة رضي الله عنها فيما يرويه البخاري (لقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم وما في ربي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي فأكلت منه حتى طال عليّ)، ويقول أنس رضي الله عنه فيما يرويه البخاري أيضاً: (لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات).

- قصة زوجاته واختيارهن العيش معه على حاله البسيطة بعد نزول قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) سورة الأحزاب، دليل آخر على زهده.

- هذه الأدلة تدفع أي شك في صدق نبوته.

ثانياً: أهمية الوسائل المشروعة كما الغايات

- الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات، لذلك رفض النبي صلى الله عليه وسلم عرض الزعامة كوسيلة لنشر الدعوة ليؤكد أن الوسائل يجب أن تكون شريفة.

- قصة عتاب الله لنبيه في شأن عبد الله بن أم مكتوم كما في سورة: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (3) [سورة عبس]، توضح أن الوسيلة غير المناسبة (إعراضه مؤقتاً عن الأعمى) غير مقبولة

حتى لو كانت الغاية نبيلة (اجتذاب زعماء قريش)، فلا يجوز تغيير أحكام الإسلام باسم "الحكمة"، بل يجب أن تكون الحكمة ضمن حدود الشريعة.

ثالثاً: سبب عدم استجابة الله لمطالب قريش بالمعجزة.

سبب عدم استجابة الله لمطالب قريش المعجزة التي ذكرها القرآن في قوله تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) [سورة الإسراء]، ليس عجزاً، بل لأن طلبهم كان عناداً واستهزاءً.

الله تعالى يوضح أنهم حتى لو شاهدوا معجزة خارقة لما آمنوا، كما في قوله: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ} (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (15) [سورة الحجر].

لا تعارض بين هذا وثبوت المعجزات الكثيرة للنبي صلى الله عليه وسلم، فالمعجزات تحققت لمن كان في قلبه استعداد للإيمان.

الحصار الاقتصادي: 11

لما أخفقت قريش في حمل بني هاشم وبني المطلب على تسليم رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعاقدت على مقاطعتهم: فلا مناكحة ولا مبايعة ولا صلح حتى يسلموه للقتل. وكتبت بذلك صحيفة وعلقتها في الكعبة، واستمر الحصار نحو ثلاث سنوات على المشهور، من السنة السابعة إلى السنة العاشرة من البعثة، وقيل دون ذلك.

وتختلف روايات السيرة في ترتيب الحصار بالنسبة إلى الهجرة إلى الحبشة وإسلام عمر رضي الله عنه؛ فرواية موسى بن عقبة تفيد تقدم بعض أحداثه، بينما تجعل رواية ابن إسحاق كتابة الصحيفة بعد الهجرة إلى الحبشة. ولذلك يثبت أصل المقاطعة ومدتها التقريبية، مع الاحتراز في الجزم بالتسلسل التفصيلي.

11 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص82-85؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص349-353، وص373-381؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، دار القلم، بيروت، ط1، 1414هـ/1993م، ج1، ص223-229.

انحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وغير مسلمهم، إلى شعب أبي طالب حمايةً للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان المؤمن يفعل ذلك دينًا، وكان غير المسلم يفعلُه حميةً للقرابة. واستثنى أبو لهب، فقد ظاهر قريشًا على النبي صلى الله عليه وسلم وقومه.

اشتد الضيق على المحاصرين، ومنعت قريش وصول الطعام والتجارة إليهم إلا ما كان يأتيهم خفية، وارتفعت الأسعار عليهم. وتصف روايات السيرة ما أصابهم من الجهد والجوع، مع اختلاف الأخبار في بعض التفاصيل المنقولة عن تلك السنوات.

وبعد طول الحصار تحرك نفر من قريش لإنهاء المقاطعة لما رأوه من قطيعة الرحم والظلم. كما تروي كتب السيرة خبر الأرضة التي أصابت الصحيفة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عمه أبا طالب بأمرها.

خرج أبو طالب إلى قريش وطلب إحضار الصحيفة، وعرض عليهم أن ينظروا فيما أخبر به ابن أخيه: فإن ظهر صدقه رجعوا عن ظلمهم وقطيعتهم، وإن كان الأمر على غير ذلك خلى بينهم وبينه، فقبلوا هذا الاحتكام. فلما فتحت الصحيفة وجدوا أثر الأرضة فيها كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم. وتختلف ألفاظ الروايات في تحديد ما أكلته الأرضة وما أبقتة، ولذلك يثبت أصل الخبر دون القطع بالصيغة التفصيلية التي اختلفت فيها طرقة.

وكان ممن اجتمع على نقض الصحيفة هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، فتعاونوا على إعلان رفض المقاطعة.

بدأ زهير بالإنكار العلني عند الكعبة، ووافقه بقية نفر، ثم قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فشققها. وانتهت المقاطعة، وخرج بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من الشعب إلى مساكنهم.

العبر والعظات

في مشهد المقاطعة الاقتصادية دلائل مهمة نذكر منها:

أولاً: موقف مشركي بني هاشم والمطلب نموذج للحمية القبلية

- تصور المقاطعة الظالمة ذروة الشدة التي عانى منها النبي وأصحابه ومعهما مشركو بني هاشم والمطلب لمدة ثلاث سنوات.

- سبب الموقف: دفعهم لذلك حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذي يشعرون به لو تخلوا عن حماية قريبيهم (محمد صلى الله عليه وسلم) أمام غريب، بغض النظر عن اختلاف العقيدة.

- دوافع الحماية: جمعوا بين رغبتين:

1- الثبات على شركهم واستكبارهم على الحق.

2- الانصياع للحمية التي تدعو إلى حماية القريب من ظلم الغريب، حقاً كان أم باطلاً.

الاستفادة: يمكن للمسلمين استغلال مثل هذه الحميات القبلية كوسيلة مشروعة للجهاد ورد عدوان الكافرين.

ثانياً: ثبات المسلمين دليل على نقاء الغاية وصدق اليقين

- رفض الإغراءات: عرض المشركون على الرسول الملك والثناء مقابل التخلي عن الدعوة، فرفض هو وأصحابه رفضاً قاطعاً.

- تحمل الشدة: قاطعهم المشركون اقتصادياً واجتماعياً حتى أكلوا أوراق الشجر، ظلوا صابرين محيطين برسول الله.

- التجرد للهجرة: عند الهجرة إلى المدينة، ترك الصحابة أموالهم وأراضيهم وممتلكاتهم وراءهم، متجردين من كل ما يطمع فيه الطامعون.

هذه المواقف تدحض الادعاءات الباطلة بأن الدعوة كانت "ثورة مادية" أو سعيًا وراء لقمة العيش أو زعامة دنيوية.

ثالثاً: سر النصر والتمكين هو الإخلاص وليس الطمع الدنيوي

- ادعاء أن المسلمين استهدفوا "امتلاك منابع الثروة وعروش الملك" هو محض افتراء، وهو أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب، فإذا كان الصحابة أسلموا طمعاً في ملك الروم والفرس، فكيف تحقق لهم هذا الفتح العظيم وهم قلة مستضعفون؟

- لو كان عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص يستهدفان "كنوز كسرى" لما انتصروا في القادسية.

- قول ربعي بن عامر عندما دخل إلى قصر رستم ورفض مظاهر الترف: "إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم" دليل ناصع على أن الهدف هو نشر الدين، لا الاستيلاء على الثروات.

فقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا لأنهم لم يجعلوها هدفاً، بل كان همهم الأُحد هو تحقيق مرضاة الله. فهم لم يصلوا إلى الدنيا لأنهم طلبوها، بل لأنهم طلبوا الآخرة فأتتهم الدنيا وهي راغمة، قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} القصص: 5.

أول هجرة في الإسلام 12

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على حمايتهم جميعاً، أذن لهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وذكر أن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وأنها أرض صدق، حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه. فكانت الهجرة الأولى في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وخرج فيها عدد قليل من المسلمين، منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وغيرهم. وتختلف الروايات في ضبط عددهم بين أحد عشر أو اثني عشر رجلاً، مع أربع نسوة.

ثم وقعت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكانت أوسع من الأولى؛ فتابع المسلمون إليها حتى بلغ عدد الرجال فيها أكثر من ثمانين، عدا النساء والأبناء، مع اختلاف كتب السيرة في الإحصاء التفصيلي. ولما رأت قريش استقرارهم في جوار النجاشي، بعثت عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وكان ذلك قبل إسلامهما، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته؛ رجاء أن يرد المهاجرين إلى مكة.

كلم مبعوثا قريش بطارقة النجاشي وقدموا إليهم الهدايا، ثم طلبا من الملك أن يسلم إليهما المسلمين. فأبى النجاشي أن يحكم في أمرهم قبل أن يسمع منهم، ودعاهم وسألهم عن الدين الذي فارقوا فيه قومهم ولم يدخلوا به في دينه ولا في دين غيره من الملل.

فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه باسم المسلمين، فشرح حالهم في الجاهلية، وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من توحيد الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، واجتناب الفواحش والدماء، ثم بين ما لقيه المسلمون من قومهم من العذاب والفتنة، وأنهم اختاروا جوار النجاشي رجاء ألا يظلموا عنده.

12 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص87-92؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص320-338، وص363-369؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص285-310.

طلب النجاشي من جعفر أن يتلو عليه شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، فبكى النجاشي ومن حوله من الأساقفة. وتذكر روايات السيرة أنه قال إن هذا والذي جاء به عيسى يخرجان من مشكاة واحدة، ثم رفض تسليم المسلمين. ولما أثار مبعوثا قريش مسألة قول المسلمين في عيسى عليه السلام، قرر جعفر أنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

أقر النجاشي ما سمعه من جعفر، ورد هدايا مبعوثي قريش، وأبقى المسلمين في جواره آمنين على دينهم؛ فعاد المبعوثان إلى مكة من غير أن يحققا غرض قريش. وبعد مدة بلغ بعض المهاجرين خبر غير صحيح يفيد أن أهل مكة قد أسلموا، فرجع فريق منهم. فلما دنوا من مكة تبين لهم بطلان الخبر، فلم يدخل من عاد منهم إلا في جوار أحد من أهل مكة أو مستخفياً. وتختلف الروايات في عدد العائدين وأسمائهم؛ لذلك لا يجزم بعدد واحد، ومن أشهر من دخل في الجوار عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة في جوار أبي طالب.

العبر والعظات

أولاً: الدين مصدر القوة والحفاظة للحقوق.

- القوة المعنوية أساس البقاء: جرت سنة الله أن تكون القوى المعنوية (من عقيدة سليمة وأخلاق) هي الحفاظة للمكاسب المادية، فالأمة ذات العقيدة الصحيحة تملك سلطاناً مادياً متماسكاً، بينما الأمة المضطربة عقيدياً تكون مكتسباتها سريعة الزوال.

- الصورة الصحيحة عن الكون والحياة لا توجد إلا في عقيدة الإسلام ونظامه الاجتماعي العادل.

- من أسس الدعوة التضحية بالمال والوطن والحياة في سبيل الدين، وبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم هذه الحقوق.

- شرع مبدأ الهجرة في الإسلام، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن نالهم الأذى خوفاً على فتنهم في دينهم، فأصبح فعله صلى الله عليه وسلم ضابطاً لحكم الهجرة في الإسلام.

حكم الهجرة من دار الإسلام

الوجوب: عند عدم تمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.

الجواز: عند الإصابة ببلاء يضيق به، فيجوز الانتقال إلى دار إسلامية أخرى.

الحرمة: إذا استلزمت الهجرة إهمال واجب إسلامي لا يقوم به غيره.

ثانياً: وحدة الرسالات السماوية

- اختبار للإخلاص: كان النجاشي ملك الحبشة على دين النصرانية مخلصاً وصادقاً فيه.
- دليل الوحدة: لو كانت النصرانية المحرفة (كالقول بأن عيسى ابن الله) هي الحق، لتمسك بها النجاشي ورد على المسلمين، لكنه قال بعد أن سمع القرآن: "إن هذا والذي جاء به عيسى ابن مريم ليخرج من مشكاة واحدة".

النتيجة: هذا يؤكد حقيقة بديهية وهي أن جميع الأنبياء جاءوا بعقيدة واحدة لم تختلف، وأن اختلاف أهل الكتاب من بعد ما جاءهم العلم كان بسبب البغي، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ} آل عمران: 19.

ثالثاً: جواز الاستجارة بغير المسلمين وشروطها

- جواز الاستجارة: يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة، سواء كان المجير من أهل الكتاب (كالنجاشي) أو مشركاً (كأبي طالب أو المطعم بن عدي الذي دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة في حمايته).

شروط الجواز: يشترط لذلك ألا تستلزم هذه الحماية

- إضراراً بالدعوة الإسلامية.

- تغييراً لبعض أحكام الإسلام.

- سكوتاً على اقتراف بعض المحرمات.

و الدليل العملي على ذلك يتمثل في موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندما طلب منه أبو طالب أن يخفف من حديثه عن آلهتهم، فلم يوافق وقرر الخروج من حمايته رافضاً السكوت عن بيان الحق.

في السنة العاشرة من البعثة توفي أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في العام نفسه. واختلفت الروايات في ترتيب الوفاة ومقدار المدة بينهما؛ وروي عن ابن سعد أن بينهما شهرًا وخمسة أيام. وكانت خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق ومصدر سكينه ومؤازرة، وكان أبو طالب عضدًا يحمي النبي صلى الله عليه وسلم من قومه. فلما مات أبو طالب اشتد أذى قريش، وتذكر كتب السيرة أن سفيهاً نثر التراب على رأس النبي صلى الله عليه وسلم، فغسلته إحدى بناته وهي تبكي، فطمأنها إلى أن الله مانع أباهما. واشتهر عند المتأخرين وصف هذا العام بـ«عام الحزن» لما اجتمع فيه من فقد النصيرين واشتداد أذى قريش، غير أنه لا يثبت في المصادر المتقدمة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أطلق عليه هذه التسمية.

العبر والعظات

أولاً: تجلي حقيقة النصر والعصمة الإلهية

- قضت حكمة الله بفقد النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب وزوجته خديجة اللذين كانا مصدر دعم وحماية ظاهريين - لتجلى حقيقتان:

1- أن النصر والحماية من الله وحده: تعهد الله بحماية رسوله وإيصال دعوته إلى غايتها بغض النظر عن وجود حماية بشرية من عدمه، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]

2- معنى العصمة الإلهية: تعني الحماية من القتل أو ما يوقف الدعوة، وليست تعني عدم تذوق الأذى. فقد ذاق الأنبياء من العذاب الكثير، كما قال الله لنبيه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الحجر.

ثانياً: الحكمة من ابتلاء الرسول وتسمية "عام الحزن"

- تخفيف المحنة على الأمة: من الحكم الجليلة لابتلاء الرسول أن يشعر المسلمون عندما يلاقون الحزن أنهم يسبرون على نفس الطريق التي أودى فيها رسول الله، مما يخفف وطأة العذاب عليهم.

13 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص92-95؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص414-418؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج3، ص151-160.

- السبب الحقيقي لحزنه وتسمية "عام الحزن": لم يكن حزن النبي صلى الله عليه وسلم على فراق أحبائه فقط، بل كان لما أعقب وفاتهما من:

- انغلاق أبواب الدعوة في وجهه.

- زيادة الصد والعدوان والاستهزاء.

ثالثاً: تسليّة الله لرسوله وبيان سنة الاصطبار.

- التسليم بقدرة الله والاصطبار: ختم الله هذه المعاني بالتسليّة لنبيه والتصريح بحزنه مما يسمع، وبيان أن هذا طريق الرسل جميعاً، كما في قوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ (34) { الأنعام.

خروج الرسول الى الطائف 14

بعد وفاة أبي طالب واشتداد أذى قريش خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، ويرجو أن يقبلوا ما جاءهم به من عند الله تعالى. وتذكر بعض كتب السيرة أن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان معه في هذه الرحلة.

قصد النبي صلى الله عليه وسلم نفرًا من سادة ثقيف، فعرض عليهم الإسلام وطلب نصرتهم، فردوا عليه ردًا منكراً، ولم يستجيبوا لطلبه أن يكتموا خبر قدومه عن قريش. وتذكر روايات السيرة أنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فرموه بالحجارة حتى دमित قدماه، وأن زيدًا كان يقيه بنفسه. ثم لجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة. واشتهر في كتب السيرة أنه دعا هناك بالدعاء الذي أوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس»، غير أن إسناد هذه الرواية لا يخلو من ضعف.

14 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص96-101؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص418-421؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص414-421.

وتروي كتب السيرة أن عتبة وشيبة أرسلتا إليه غلامهما النصراني عداسًا بقطف من عنب. فلما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم باسم الله سألته عداس، ثم دار بينهما حديث عن نينوى ويونس بن متى عليه السلام؛ فعرف عداس صلة ما سمعه بالنبوة، وأظهر تعظيمه للنبي صلى الله عليه وسلم.

وربط ابن إسحاق في سياق عودة النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف بين مروره بنخلة واستماع نفر من الجن إلى قراءته القرآن، وهو الحدث الذي أخبر به القرآن في سورتي الأحقاف والجن. وأصل استماع الجن ثابت بالقرآن، أما تعيين زمنه بهذا الموضع من رحلة الطائف فهو من ترتيب روايات السيرة.

ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم يريد دخول مكة. وتذكر روايات السيرة أنه أرسل إلى المطعم بن عدي يطلب جواره، فأجاره المطعم، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة في حمايته. وقد ظل واثقًا بأن الله جاعل له فرجًا ومخرجًا، وأنه ناصر دينه ومظهر نبيه.

العبر والعظات

أولاً: الهجرة نموذج عملي لتعليم الصبر

ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم من محن في هجرته، خاصة في الطائف، كان جزءاً من تبليغه لأمته، فكما بلغ العبادات قولاً وعملاً بقوله: (صلوا كما رأيتموني أصلي) و(خذوا عني مناسككم)، فإنه علمهم فن الصبر العملي على الشدائد تنفيذاً لأمر الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون).

ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها عن أشد ما لاقى: (لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة...) إلى أن قال له ملك الجبال: (يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك... إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً).

- الشكوى إلى الله - كما في هذا الحديث - لا تناقض الصبر، بل هي تعبد وضراعة إليه.

ثانياً: المواساة الإلهية رداً على الأذى

في كل مشهد أذى كان الله يعوض النبي صلى الله عليه وسلم بمواساة تمسح الألم. ففي الطائف، بعد العذاب الشديد، جاءت مواساة الله بقصة النصراني عداس الذي أقبل عليه وقبل رأسه ويديه ورجليه عندما علم بنبوته.

ثالثاً: التضحية والفداء في حماية الدعوة.

يتجلى واجب الدفاع عن قائد الدعوة في فعل زيد بن حارثة رضي الله عنه، الذي وقى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه من حجارة السفهاء حتى شُجَّ رأسه، مقدماً نموذجاً للتضحية بالنفس.

رابعاً: استماع الجن دليل على وجودهم وتكليفهم

قصة استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بنخلة، والتي رواها ابن إسحاق وذكرها البخاري ومسلم والترمذي، دليل قطعي على وجودهم وتكليفهم:

ويؤكد ذلك القرآن في نصوص صريحة مثل: آيات سورة الجن: (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن...) وقوله تعالى في سورة الأحقاف: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله: (ويجرمكم من عذاب أليم).

خامساً: الثقة بالله وبنصره رغم الشدائد

رغم شدة ما عاناه الرسول صلى الله عليه وسلم ظلت ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بالله ودليل ذلك رده الواثق على زيد عندما سأله عن العودة إلى مكة: (يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه). فلم تؤثر المحن على يقينه بنصر الله الذي بالغ أمره و(جعل الله لكل شيء قدراً)

معجزة الإسراء والمعراج 15

الإسراء هو انتقال النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج هو عروجه بعد ذلك إلى السماوات العلا وما أراه الله من آياته الكبرى. وقد وقعت الرحلة في ليلة واحدة، وهي من معجزاته صلى الله عليه وسلم.

اختلف أهل السيرة اختلافاً واسعاً في تاريخ الإسراء والمعراج؛ فقليل كانا في السنة العاشرة من البعثة، وقيل بعد ذلك، وروى ابن سعد قولاً يجعلهما قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً. ولا يوجد دليل حاسم يعين الشهر أو الليلة تعييناً متفقاً عليه.

15 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص102-109؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص395-407؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص354-413.

ذهب جمهور العلماء إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في اليقظة بالجسد والروح معاً، واستدلوا بظاهر القرآن والأخبار الصحيحة. وقد وردت تفاصيل الرحلة في أحاديث متعددة في الصحيحين وغيرهما.

جاء في الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بالبراق، فانتقل به إلى بيت المقدس، وربطه بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، وصلى هناك. ثم عرج به جبريل عليه السلام إلى السماوات، فلقي عددًا من الأنبياء، وبلغ سدره المنتهى، وأراه الله من آياته. وفي هذه الليلة فرضت الصلوات الخمس، وكانت أولاً خمسين صلاة ثم خففت إلى خمس في العمل وخمسين في الأجر. كما ورد أنه اختار اللبن على الخمر، فقبل له: اخترت الفطرة.

لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قريباً بالإسراء أنكرت خبره وسألته عن أوصاف بيت المقدس، فجلاه الله له، فأخذ يصفه لهم وهو ينظر إليه؛ وهذا ثابت في الصحيحين. واشتهر في كتب السيرة أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر قال: إن كان قال ذلك فقد صدق، تأكيداً لكمال تصديقه برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وترتبط ليلة المعراج بفرض الصلوات الخمس. أما تفصيل مواقيت الصلاة فقد ثبت في حديث إمامة جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم، واختلف أهل العلم في ترتيب بعض أحكام الصلاة وعدد الركعات قبل الإسراء وبعده؛ لذلك لا يجزم بالتفاصيل التي لم يثبت فيها نص صحيح صريح.

العبر والدلالات

أولاً: حتمية الإيمان بالمعجزات كأصل للنبوة

يحاول المغرضون تصوير النبي صلى الله عليه وسلم على أنه مجرد قائد أو عبقرى، لينفوا عنه صفة النبوة وما يستلزمه من معجزات وخوارق. والحقيقة أن نفي المعجزات عنه يساوي هدم معنى النبوة نفسها وإنكار الدين.

ثانياً: المعجزات الثابتة في السيرة النبوية

أجرى الله معجزات كثيرة على يد النبي صلى الله عليه وسلم، نُقلت إلينا بأسانيد صحيحة متواترة، منها:

- انشقاق القمر: حين سأله المشركون، فأخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم في كتاب صفة القيامة، وقال ابن كثير: "قد وردت بذلك الأحاديث المتواترة

- الإسراء والمعراج: وهو حديث متفق عليه لا تنكر قطعية بثبوته.

- نبع الماء من بين أصابعه: كما أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، ومسلم في كتاب الفضائل، ومالك في الموطأ.

ثالثاً: مفهوم المعجزة بين الحقيقة والنسبية

المعجزة في الاصطلاح هي كل أمر خارق للعادة، لكن العادة تتطور. فالحق أن كل شيء في الكون معجزة (الكواكب، الجاذبية، الروح)، ولكن الإنسان ينسى ذلك بسبب الإلف والإله القادر على خلق هذه المعجزات قادر على تغيير أنظمتها.

رابعاً: سياق معجزة الإسراء والمعراج

جاءت معجزة الإسراء والمعراج بعد المحن الشديدة التي لاقاها النبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة بعد عودته من الطائف، حيث دعا بقوله: (إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي). فكانت هذه المعجزة تكريماً من الله وتجديداً لعزمه، وإثباتاً أن ما يلاقيه ليس دليلاً على هجره، بل هي سنة الله في الدعوة.

خامساً: الدلالات الرمزية والمعاني

العلاقة ببيت المقدس: إسرائه إلى بيت المقدس قبل العروج يدل على قدسيته والعلاقة الوثيقة بين الأنبياء، ويحث المسلمين على حمايته وتحريره من الأعداء.

اختيار اللبن: اختياره اللبن على الخمر دليل رمزي على أن الإسلام هو دين الفطرة الذي ينسجم مع الطبيعة الأصلية للإنسان.

سادساً: حقيقة الإسراء والمعراج بالجسد والروح

ذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف إلى أن الإسراء والمعراج وقعا بالجسد والروح معاً في اللحظة. واستدلوا على ذلك بما يلي:

نقل الإمام النووي في شرح مسلم: والحق الذي عليه أكثر الناس... أنه أسري بجسده صلى الله عليه وسلم، والآثار تدل عليه... ولا استحالة في حملها عليه.

ونقل الإمام ابن حجر في فتح الباري: "إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب جمهور... وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة.

والدليل التاريخي على ذلك يتمثل في استعظام كفار قريش للخبر وتكذيبهم له، وسؤالهم عن أوصاف بيت المقدس لتكذيبه، دليل على أنه كان حدثاً مادياً محسوساً، وليس مجرد رؤيا منامية.

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- لماذا بدأت الدعوة سرية، ومتى انتقلت إلى الجهر؟
- 2- ما الوسائل التي اتبعتها قريش لمواجهة الدعوة؟
- 3- ما الأحكام والدلالات المستفادة من الهجرة إلى الحبشة؟
- 4- كيف أسهمت أحداث عام الحزن والطائف والإسراء في إعداد مرحلة جديدة للدعوة؟

المحاضرة الرابعة الأنصار وبيعنا العقبة والهجرة

مضامين المحاضرة

- ١- عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل وبداية إسلام الأنصار.
- ٢- بيعتنا العقبة وأثرهما في تأسيس النصر والتمهيد للهجرة.
- ٣- هجرة الصحابة إلى المدينة وأحكام الهجرة والنصرة.
- ٤- هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وما صاحبها من تخطيط وأخذ بالأسباب.

عرض الرسول نفسه على القبائل وبدء إسلام الأنصار 16

استمر النبي صلى الله عليه وسلم يعرض الإسلام على قبائل العرب في مواسم الحج، يدعوهم إلى توحيد الله، ويتلو عليهم القرآن، ويطلب ممن يقبل دعوته أن يحميه حتى يبلغ رسالة ربه. ولم تتحقق له في البداية نصره عامة من قبيلة تتبنى الدعوة.

وتذكر كتب السيرة أنه كان يأتي منازل القبائل في عكاظ ومجنة وذو المجاز ومنى، وأن أبا لهب كان يتبعه محذراً الناس منه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلن أصل دعوته، ويعد من آمن بالله واتبع رسوله بالفلاح والجنة. ومن القبائل التي عرض عليها الإسلام بنو عامر بن صعصعة. فلما رأى بعضهم ما يمكن أن تؤول إليه الدعوة سأل عن انتقال الأمر إليهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فأجاب: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، فرفضوا النصر لما لم يجعل لهم سلطان ما بعده؛ وهو ما يبين أن الرسالة لم تكن مجالاً لمساومة سياسية أو قبلية.

وفي موسم السنة الحادية عشرة من البعثة لقي النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة نفرًا من الخزرج، وكانوا ستة على المشهور في رواية ابن إسحاق، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن قومهم، فعرف أنهم من الخزرج المجاورين لليهود في يثرب. وكانت صلتهم بيهود المدينة قد عرفتهم بأصل خبر النبوة وانتظار بعثة نبي في ذلك الزمان.

16 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص118-125؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص421-437؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص416-442.

فجلسوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، واستمعوا إلى ما دعاهم إليه من توحيد الله والإيمان برسالته.

فآمنوا به وقبلوا الإسلام، ثم رجعوا إلى يثرب يدعون قومهم ويخبرونهم بأمره.

وكان مما هيا نفوسهم لقبول الدعوة أن اليهود كانوا يذكرون قرب مبعث نبي، فضلاً عما أنهك الأوس والخزرج من عداوة وحروب، ولا سيما يوم بعاث، فوجدوا في الإسلام سبيلاً إلى جمع الكلمة.

وقال بعضهم لبعض: إنه النبي الذي كانت يهود تتوعدكم به، فلا تسبقنكم إليه. ثم وعدوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرضوا الإسلام على قومهم، ورجوا أن يجمع الله به ما تفرق بينهم. وانتشر خبر الإسلام في بيوت يثرب حتى تهيأت للقاء التالي.

بيعة العقبة الأولى

في الموسم التالي قدم اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة وبايعوه على التوحيد واجتناب الكبائر والطاعة في المعروف. وسميت في كتب السيرة بيعة العقبة الأولى، ووُصفت بأنها على نحو بيعة النساء؛ أي إن القتال لم يكن داخلياً في شروطها.

ثبت حديث هذه البيعة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه بألفاظ متقاربة في الصحيحين. ولما انصرف القوم بعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، فكان لنشاطه أثر كبير في انتشار الدعوة في المدينة قبل الهجرة.

العبر والعظات

أولاً: ثمار الصبر وتحول مسار الدعوة

بعد إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر على الشدائد، بدأت مرحلة جديدة تثمر فيها الجهود. لقد أነع الصبر، وبدأت النتائج تظهر، حيث أن المحن والاختبارات هي التي تُحص الصادقين وتبين حقيقة المؤمنين، وليس من العدل أن يحصد الإنسان ثمار النجاح دون أن يبذل الثمن.

ثانياً: الطبيعة العالمية للدعوة وبراءة القومية

جاءت أولى الثمار الكبيرة للدعوة من خارج قريش، من أهل المدينة، رغم طول احتكاكه بقومه في مكة. وهذا دليل على أن دعوته صلى الله عليه وسلم ليست دعوة قومية أو قبلية، ولم تكن نتاج رغبات قومه أو ظروف بيئته، بل هي رسالة عالمية من الله للناس كافة.

ثالثاً: التمهيد الإلهي لقبول الدعوة في المدينة

تمهيداً لهجرة الرسول، هياً الله قلوب أهل المدينة لقبول الإسلام، حيث كان هناك تمهؤ نفسي مسبق، إذ كان جيرانهم من اليهود يخبرونهم بأن نبياً قد آن أوان بعثته، فكانت قلوبهم متشوقة لظهوره.

رابعاً: الإسلام التزام وعقد بيعة

لم يكن إسلام الأنصار مجرد نطق بالشهادتين، بل كان التزاماً عملياً بمقتضى بيعة العقبة الأولى، التي أخذها رسول الله عليهم، والتي التزموا فيها بعدم الشرك بالله، وعدم السرقة، أو الزنا، أو قتل الأولاد، أو الافتراء، وعدم عصيانه في معروف.

خامساً: الدعوة مسؤولية كل مسلم

بيّنت حادثة إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة لتعليم الناس الدين أن مهمة الدعوة ليست حكراً على الرسل أو العلماء وحدهم، بل هي جزء من حقيقة الإسلام وواجب على كل مسلم ومسلمة، وهي تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو جماع معنى الجهاد.

سادساً: لا معنى لإطلاق مصطلح "رجال الدين" في الإسلام

لا معنى لإطلاق مصطلح "رجال الدين" على فئة معينة في الإسلام، فكل مسلم رجل لهذا الدين، وقد بايع الله ورسوله على الجهاد في سبيله بنفسه وماله، وهو ما يعني تسخير كل الطاقات لإقامة الدين. وهذا لا ينافي الاختصاص العلمي للعلماء في الاجتهاد وتبصير الناس بأحكام دينهم.

بيعة العقبة الثانية 17

عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة في موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة، وقدم معه مسلمو يثرب ضمن حجاج قومهم، وقد اتفقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على لقاء سري عند العقبة في إحدى ليالي التشريق.

17 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص126-134؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص437-466؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص442-461.

تروي كتب السيرة، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، أنهم خرجوا من رحلهم بعد مضي جزء من الليل متسللين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة. وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين في رواية ابن إسحاق، وترد في بعض الروايات عبارة السبعين على سبيل التقريب. وحضر العباس بن عبد المطلب مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكلّمهم في مسؤولية حمايته، ثم تلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاهم إلى الله، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم.

أكد الأنصار استعدادهم للنصرة، وسأل أبو الهيثم بن التيهان عن استمرار العهد إذا نصر الله رسوله، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بما يفيد وحدة المصير والوفاء بالعهد. ثم طلب منهم اختيار اثني عشر نقيباً على قومهم، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

تمت البيعة على السمع والطاعة، والنفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق، ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم وحمايته إذا قدم المدينة. ولما عرض العباس بن عباد مهاجمة أهل منى، نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال إنهم لم يؤمروا بذلك، وأمرهم بالعودة إلى رحلهم.

بلغ قريشاً في الصباح خبر الاجتماع، فجاؤوا إلى حجاج يثرب يحتجون على ما بلغهم. فحلف المشركون من أهل يثرب أنهم لا يعلمون شيئاً، وكانوا صادقين؛ لأن البيعة جرت سرّاً عنهم، بينما التزم المسلمون الصمت.

وبعد انصراف الحجاج تحققت قريش من وقوع البيعة، فخرجت في طلب أهل يثرب، فأدركت سعد بن عباد رضي الله عنه وأمسكت به، في حين أفلت المنذر بن عمرو.

أدخلت قريش سعداً إلى مكة وهي تضربه، ثم خلصه جبير بن مطعم والحارث بن حرب -أو ابن أمية في بعض الروايات- لما ذكرهما بما كان بينه وبينهما من جوار ومعاملة في يثرب.

كانت هذه البيعة انتقالاً بالدعوة إلى طور النصرة والحماية، ولذلك سماها أهل السيرة بيعة الحرب تمييزاً لها من البيعة الأولى. غير أن الإذن العام للمسلمين بالقتال نزل بعد الهجرة، فلا ينبغي الخلط بين التزام الأنصار بالدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم وبين زمن نزول تشريع القتال.

وتضمنت البيعة السمع والطاعة في المعروف، والثبات على الحق، والنفقة والنصرة، وألا تمنعهم في الله لومة لائم، وأن يحموا النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم عليهم كما يحمون أنفسهم وأهليهم، ولهم على الوفاء بذلك الجنة.

ثم نزل الإذن بالقتال بعد الهجرة في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، وما بعدها من سورة الحج (39-40)، فكان تشريع القتال مرتبطاً بقيام جماعة المسلمين وقدرتها على الدفاع عن نفسها.

العبر والعظات

دلالات بيعة العقبة:

أولاً: بيعة العقبة الثانية: المقدمة التاريخية للهجرة

تُعد بيعة العقبة الثانية الحدث التأسيسي الذي مهّد لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، حيث بايعه اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج على الإسلام والنصرة. وقد تميزت هذه البيعة بشموليتها للمبادئ التي سيتم تشريعها لاحقاً، حيث مثلت نقلة نوعية في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ثانياً: النظرة المستقبلية لمبدأ الجهاد

تمثلت حكمة هذه البيعة في تضمينها مبادئ سُشرع بعد الهجرة، وأبرزها مبدأ الجهاد والدفاع عن الدعوة، وقد تجلّى استشراف المستقبل في قول العباس بن عباد رضي الله عنه: (والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا). فرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بحكمة: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رجالكم)، مما يدل على التدرج في التشريع.

ثالثاً: التدرج في تشريع الجهاد

يؤكد القرآن الكريم هذا المنهج التدريجي في تشريع القتال، حيث كانت أول آية نزلت في هذا الشأن قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الحج: 39. وقد نزلت هذه الآية بعد الهجرة، مما يدل على أن الجهاد مر بمراحل متعددة.

1- المرحلة التمهيديّة للجهاد وتشمل: التعريف بالإسلام والدعوة إليه؛ لإقامة الحجج والبراهين، وحل المشكلات التي تعترض فهم الدعوة.

وهذه المراحل تُعد جهاداً بالحكمة والموعظة الحسنة، وهي فرض كفاية على المسلمين.

2- دار الإسلام كملاذ آمن

اقتضت رحمة الله تعالى ألا يُكلف المسلمين القتال إلا بعد توفر دار للإسلام، وقد تحقق ذلك بقيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، التي أصبحت ملاذاً آمناً للمسلمين، ومنطلقاً للدعوة الإسلامية، ومركزاً لتطبيق الأحكام الشرعية.

رابعاً: آثار بيعة العقبة على الدعوة

كان لانتشار خبر البيعة بين مشركي مكة دور مهم في تهيئة الأسباب للهجرة النبوية، خصوصاً بعد تضيق قريش على الدعوة الإسلامية وتخاذ زعماءها قرار قتل النبي صلى الله عليه وسلم. فكانت البيعة مقدمة طبيعية للهجرة والتحول التاريخي في مسيرة الدعوة.

إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة 18

بعد بيعة العقبة الثانية توافرت للمسلمين في يثرب بيئة آمنة وأنصار قادرين على حمايتهم، واشتد في المقابل أذى قريش للمسلمين في مكة لما علمت باتصالهم بأهل المدينة.

فأذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة، وأخبرهم أن دار هجرتهم أرض ذات نخل بين حرتين، فعرفوا أنها يثرب. فأخذ المسلمون يخرجون أفراداً وجماعات متخفين اتقاءً لمنع قريش.

تختلف الروايات في تعيين أول من قدم المدينة من المهاجرين؛ فتذكر روايات السيرة سبق أبي سلمة بن عبد الأسد، وثبت في صحيح البخاري أن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. ويمكن الجمع بأن أبا سلمة سبق مهاجراً بنفسه، وأن مصعباً كان أول من قدم للتعليم أو ممن استقبلهم الأنصار على الصفة المذكورة في الحديث. ثم تتابع المهاجرون، ونزلوا على إخوانهم من الأنصار.

وخرج أكثر المهاجرين مستخفين خشية أن تمنعهم قريش. واشتهرت رواية تفيد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعلن هجرته وتحدى قريشاً عند الكعبة، لكنها لا تثبت من جهة الإسناد؛ والثابت أنه هاجر مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بعد تواعدهم عند موضع خارج مكة، ثم لحقتهم ابتلاءات فصلتها كتب السيرة.

18 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص134-135؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص467-479؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص461-467.

وتتابعت الهجرة حتى خلت دور جماعات من المسلمين بمكة، ولم يبق فيها إلا النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما، ومن حبسه المشركون أو عجز عن الخروج. وبذلك انتقل معظم المسلمين إلى دار النصره قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم.

العبر والعظات

أولاً: الهجرة النبوية: نموذج للإخلاص والتضحية

يُعطي حدث الهجرة المثل الصحيح للمسلم الذي أخلص الدين لله، فلا يبالي بالوطن ولا بالمال ولا النسب في سبيل أن يسلم له دينه. وهذا ما تجلّى في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، الذين ضحوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل الله.

ثانياً: أهل المدينة: نموذج للأخوة الإسلامية

أما أهل المدينة الذين آوهم في بيوتهم ووأسوهم ونصروهم، فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية والمحبة في الله تعالى، فكانوا نعم الأنصار والإخوة.

ثالثاً: الحكمان الشرعيان المستنبطان من الهجرة

1- وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام

وقد روى الطبري عن ابن العربي: "أن هذه الهجرة كانت فرضاً في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة. والتي انقطعت بالفتح، إنما هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإن بقي في دار الحرب عصي". ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة.

ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) النساء.

2- وجوب نصره المسلمين لبعضهم البعض

فقد اتفق العلماء والأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين، في أي جهة من جهات الأرض، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باؤوا بإثم كبير.

3- قول أبي بكر العربي في النصرة

يقول أبو بكر العربي: (إذا كان في المسلمين أسراء أو مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن، بأن لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك)

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم 19

لما تتابع المسلمون إلى المدينة استأذن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الهجرة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي»، فطمع أبو بكر أن يكون صاحبه، وأعد راحلتين لهذه الرحلة. وأصل الخبر ثابت في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها. خشيت قريش أن يلحق النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في المدينة فيقوى أمره، فتشاورت في التخلص منه. وقد سجل القرآن أصل مكرهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ (الأنفال: 30)، وتفصل كتب السيرة اجتماعهم في دار الندوة واتفاقهم على أن يشترك فتيان من القبائل في قتله، فأذن الله لنبيه بالهجرة.

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بيت أبي بكر وقت الظهر على غير عادته، وأخبره بأنه قد أذن له في الخروج. فسأل أبو بكر الصحبة، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم، وعرض أبو بكر إحدى راحلتيه، فقبلها النبي صلى الله عليه وسلم بالثمن. جهزت أسرة أبي بكر الراحلتين، وصنعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها سفرة الرحلة، وشقت نطاقها لتربط به الجراب؛ فسميت ذات النطاقين.

19 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص137-141؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص479-503؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص467-522.

أُحكِمَ تدبير الرحلة؛ فكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما في الغار بأخبار قريش، وكان عامر بن فهيرة يريح عليهما الغنم، وكانت أسماء تأتيهما بالطعام، واستأجرا عبد الله بن أريقط دليلاً خريئاً ماهراً بالطريق مع بقائه على دين قريش. وتذكر كتب السيرة أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقي بمكة ليرد الودائع التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابها.

وتروي كتب السيرة عن أسماء رضي الله عنها أن أبا بكر خرج بماله، وأنها هدأت قلق جدها أبي قحافة بوضع أحجار في الموضع الذي كان يوضع فيه المال وتغطيتها بثوب؛ وهي رواية تبرز مشاركتها وثباتها، مع كون تفاصيلها من أخبار السيرة لا من روايات الصحيحين.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ليلاً، واتجها جنوب مكة إلى غار ثور خلاف الطريق المعتادة إلى المدينة، فأقاما فيه ثلاث ليال. وتذكر روايات السيرة مبيت علي رضي الله عنه في فراش النبي صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين المتربصين، أما تعيين يوم الخروج على وجه القطع فقد اختلف فيه أهل السيرة.

كان عبد الله بن أبي بكر يبيت قريباً منهما ثم يعود إلى مكة بسحر، فيصبح بين قريش ويسمع أخبارها، وكان عامر بن فهيرة يمر بالغنم في المساء. والثابت في صحيح البخاري أنهما مكثا في الغار ثلاث ليال حتى هدأ الطلب وجاءهما الدليل بالراحتين.

وصل المطاردون إلى مقربة من الغار، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»، وهو ثابت في الصحيحين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40). ولم يحتج نجاحهما إلى الجزم بما اشتهر من تفاصيل العنكبوت والحمامتين؛ إذ لا تثبت بأسانيد صحيحة.

بعد ثلاث ليال جاء عبد الله بن أريقط بالراحتين، فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، ومعهما عامر بن فهيرة والدليل، وملكوا طريق الساحل. وكانت قريش قد جعلت جائزة لمن يردهما، فاشتد الطلب في أثرهما. ومن أشهر من لحق بهم سراقه بن مالك؛ فقد طمع في الجائزة وخرج في أثرهم، فساخت قوائم فرسه في الأرض، فعلم أنهم محفوظون وطلب الأمان. ثم عاد يصرف الناس عن الطريق التي سلكها الركب، بعد أن خرج أول النهار طالباً لهما. وأصل قصة سراقه ثابت في صحيح البخاري.

وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قباء، فأقام فيها أياماً، ولحق به علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وبنى المسلمون مسجد قباء، وهو من أقدم مساجد الإسلام. وقد ورد خلاف بين العلماء في تعيين المسجد المقصود

بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ (التوبة: 108)، وإن كان مسجد قباء داخلاً في فضل التأسيس على التقوى.

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم من قباء إلى المدينة، وصلى الجمعة في بني سالم بن عوف، ودخل المدينة في شهر ربيع الأول، مع اختلاف أهل السيرة في تعيين اليوم. واستقبله الأنصار بفرح، وتذكر روايات السيرة أنه ترك ناقته تسير حتى بركت في مرید لغلامين يتيمين من بني النجار، ونزل في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

العبر والعظات

أولاً: مكانة أبي بكر الصديق وفضله

يُظهر اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رفيقاً في الهجرة قرينه ومحبته له، وقد تعززت هذه المكانة بعد استخلافه له للصلاة بالناس أثناء مرضه صلى الله عليه وسلم، كما قال في حقه "لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً".

ثانياً: الحكمة من تخفي الرسول في الهجرة مقابل جهر عمر بها

هجرة الرسول كانت بتخطيط واحتياط لكونه مشرعاً، بينما هاجر عمر علانية لأنه ليس مشرعاً، ليبين صلى الله عليه وسلم لأتباعه أن الأخذ بالأسباب لا يتعارض مع التوكل على الله بدليل فعله الذي يمثل سنة تشريعية.

ثالثاً: دلالة تخلف علي لأداء الودائع:

تكشف هذه الحادثة عن تناقض المشركين الذين كانوا يودعون أماناتهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم ثقة بأمانته، في حين كانوا يكذبون دعوته ويحاربونها. وتبرز أيضاً كمال أمانته صلى الله عليه وسلم حيث استخلف علياً رضي الله عنه لرد الودائع إلى أصحابها، رغم ما كان يحيط بالموقف من عداً وخطر.

رابعاً: دور الشباب في نصره الإسلام

نشاط عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء نموذج للشباب المجاهد، فمشاركتهما الفعالة في تهيئة الرحلة وتوفير المعلومات للرسول صلى الله عليه وسلم من أسباب نجاح الهجرة.

خامساً: معجزة إبطال كيد المشركين

فقد خرج الرسول من بين المشركين يرتل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ والرواية في البخاري ومسلم دليل على وقوع هذه المعجزة.

سادسا: استقبال الأنصار للرسول في المدينة

اتسم استقبال الأنصار للرسول في المدينة بحفاوة استثنائية تدل على عمق المحبة التي كانت أساس الإتياع، وقد تجلى ذلك قول الرسول للأنصار: "أتحببني؟ والله إن قلبي ليحبكن".

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- ما العوامل التي هيأت أهل يثرب لقبول الإسلام؟
- 2- ما أوجه الاتفاق والاختلاف بين بيعتي العقبة الأولى والثانية؟
- 3- كيف اجتمع التوكل والأخذ بالأسباب في الهجرة النبوية؟
- 4- ما الأدوار التي قام بها أبو بكر وأسماء وعبد الله وعامر بن فهيرة في رحلة الهجرة؟

المحاضرة الخامسة بناء المجتمع في المدينة

مضامين المحاضرة

- ١ - بناء المسجد بوصفه مركزاً للعبادة والتعليم وتنظيم المجتمع.
- ٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأثرها في التكافل والوحدة.
- ٣ - وثيقة المدينة وأهم مبادئها في الحقوق والواجبات والعلاقات المشتركة.
- ٤ - الأسس الدينية والاجتماعية والسياسية التي قام عليها المجتمع الجديد.

- أسس المجتمع الجديد

مثلت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انتقال المسلمين من الاستضعاف في مكة إلى مجتمع منظم يستطيع إقامة شعائر الدين وحماية أفرادهم. وأقام النبي صلى الله عليه وسلم أول قدومه في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه حتى تهيأ له مسكنه، واشتهر اسم المدينة وطيبة وطابة بدل الاسم القديم يثرب.

وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم تثبيت المجتمع الجديد بأعمال عملية متكاملة، تجمع بين العبادة وبناء الروابط الاجتماعية وتنظيم العلاقة بين مكونات المدينة.

أولاً: بناء المسجد ليكون موضع الصلاة والتعليم والاجتماع.

ثانياً: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتقوية التضامن والتكافل.

ثالثاً: كتابة وثيقة تنظم حقوق الجماعة وواجباتها وعلاقتها بغير المسلمين من سكان المدينة.

الأساس الأول (بناء المسجد) 20

كان الموضع الذي بركت فيه ناقة النبي صلى الله عليه وسلم مربداً للتمر لغلामين يتييمين من بني النجار، هما سهل وسهيل، وكان في الموضع نخل وخرب وقبور للمشركين. فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من بني النجار تقويم

20 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص151-156؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص495-503؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج2، ص539-548.

الأرض، وأبى أن يأخذها بغير مقابل بحسب روايات السيرة، بينما جاء في صحيح البخاري أنهم قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. فأمر بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، ثم شرع المسلمون في البناء. شارك النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في حمل اللبن والحجارة، وكانت جدران المسجد من اللبن، وسقفه من جريد النخل، وعمده من جذوعه، وأرضه من الرمل والحصباء. وكانت قبلته أول الأمر إلى بيت المقدس. وثبت في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول مع أصحابه: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة».

بقي المسجد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه قريباً من بنائه الأول. ثم وسعه عمر رضي الله عنه مع إبقاء مادته وهيئته العامة، ووسعه عثمان رضي الله عنه بعد ذلك وبناه بالحجارة المنقوشة والجص، وجعل عمده من الحجارة وسقفه بالساج، كما ثبت في صحيح البخاري.

العبر والدلائل

أولاً: أهمية المسجد في المجتمع الإسلامي

يُعتبر المسجد الركيزة الأساسية في بناء المجتمع الإسلامي، حيث أولاه الرسول صلى الله عليه وسلم أولوية كبرى فور وصوله إلى المدينة. وتتمثل أهميته في كونه مركزاً لتحقيق مقاصد اجتماعية ودينية عديدة، حيث يعمل على تعزيز أواصر الأخوة الإيمانية من خلال تلاقي المسلمين فيه بشكل يومي، كما يحقق مبدأ المساواة بينهم حين يقف الجميع صفّاً واحداً في الصلاة، متجردين من الفوارق الدنيوية. ويظل المسجد منارة لتوحيد الأمة تحت مظلة الشرع الحكيم، حيث يتعلم المسلمون أحكام دينهم ويتدارسون شريعتهم السمحة

ثانياً: جواز نبش القبور الدارسة لبناء المساجد

يصح شرعاً نبش القبور التي لم يعد لها أثر، واتخاذ مسجد موضعها، ويشترط لذلك ألا تكون الأرض وقفاً، فإن كانت موقوفة فلا يجوز تحويلها عن الوقف الأصلي. وقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا حين أمر بنبش قبور المشركين في موضع مسجده.

ثالثاً: حكم تشييد المساجد وتزويقها

أجاز العلماء تشييد المساجد وتقوية بنائها، استناداً إلى فعل عمر وعثمان رضي الله عنهما في تطوير مسجد الرسول، ولقوله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ}. أما الزخرفة والنقش، فجمهور العلماء على كراهتها، وبعضهم يحرمها، خاصة إذا صرفت عليها أموال الوقف، أما إن كان المال من الباني فالأمر أوسع.

الأساس الثاني: الأخوة بين المسلمين 21

آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار على المواساة والنصرة، ليعالج ما ترتب على الهجرة من فقد المهاجرين أموالهم وديارهم، وليقيم المجتمع على رابطة العقيدة بدل العصبية القبلية. وتورد كتب السيرة أسماء عدد من المتآخين، غير أن قوائمها وتفصيلها ليست على درجة واحدة من الثبوت.

كان من آثار المؤاخاة في أول العهد المدني التناصر والتكافل، وجرى التوارث بالعقد بين المتآخين في مرحلة مؤقتة بحسب ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم نسخ التوارث وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة، وعاد الميراث إلى قرابة النسب، قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: 75). وثبت في صحيح البخاري مثال مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما وما أبداه الأنصار من مواساة.

العبر والدلائل

أولاً: مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، فجعل كلاً منهما أخاً للآخر في الدين، تقوم هذه الأخوة على الحق والمواساة والتكافل. وقد بلغت هذه الأخوة مبلغاً عظيماً جعلها مقدمة على روابط القرابة والنسب في الميراث، حيث كان المتآخيان يتوارثان دون ذوي الأرحام.

ثانياً: الأهمية التشريعية للمؤاخاة

تمثل المؤاخاة أساساً هاماً في بناء الدولة الإسلامية، حيث حققت:

- الوحدة المجتمعية: إذ وحدت القلوب على أساس العقيدة قبل القبيلة.

- التكافل الاجتماعي: فحولت المجتمع إلى كيان متعاون ومتراحم

- النسيج الاجتماعي المتين: حيث أصبح المهاجرون والأنصار كالجسد الواحد

21 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص156-159؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص503-506؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج3، ص226-231.

ثالثاً: المظاهر العملية للأخوة

لم تكن الأخوة مجرد شعار، بل تجسدت في واقع ملموس، ومن أبرز أمثلتها، عرض سعد بن الربيع على أخيه عبد الرحمن بن عوف أن يشاركه كل ما يملك من مال ومسكن، ولم تكن هذه حالة استثنائية فقد تفاني كل الأنصار في مساعدة إخوانهم المهاجرين وتوفير سبل العيش الكريم لهم، بالإضافة إلى تطبيق نظام التوارث بين المتأخين كأقصى درجات التكافل.

رابعاً: نسخ التوارث بالأخوة

بعد غزوة بدر، نزل قوله تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأنفال: 75]. فنسخت هذه الآية حكم التوارث بالأخوة الإيمانية، وعاد الميراث إلى نظام القرابة والنسب، وبقي معنى الأخوة العامة والمودة والتناصر بين جميع المؤمنين.

الأساس الثالث: كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم 22

ومن أسس تنظيم المجتمع المدني كتابة صحيفة بين المهاجرين والأنصار، تضمنت أحكاماً تتعلق بالتكافل والعدل والأمن والدفاع المشترك، ووادع فيها النبي صلى الله عليه وسلم جماعات من اليهود، وأقر لهم دينهم وأموالهم، وحدد ما لهم وما عليهم في إطار الجماعة السياسية في المدينة.

أورد ابن إسحاق نص الصحيفة بلا إسناد متصل، ورويت مضامين منها بأسانيد وطرق أخرى، وفي بعضها ضعف أو اختصار. ولذلك يرى كثير من الباحثين أن أصل الصحيفة ومجمل بنودها ثابتان بتعدد طرقها وشواهدهما، مع الاحتراز من الجزم بأن كل لفظ في النص الطويل ورد بسند واحد صحيح. ويختلف الباحثون كذلك في كون البنود الواردة نصاً واحداً كتب في وقت واحد أو مواد جمعت من أكثر من عهد.

أبرز بنود الوثيقة

فيما يأتي أهم المضامين التي وردت في نص الصحيفة كما حفظته كتب السيرة، مرتبة ترتيباً موضوعياً ومختصرة من غير ادعاء استيعاب جميع ألفاظها:

22 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص159-164؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص501-504؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار القلم، بيروت، ط1، 1414هـ/1993م، ج1، ص227-232.

- 1- المؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.
- 2- تحتفظ بطون المسلمين بتنظيم مسؤولياتها المالية، ويتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط.
- 3- لا يترك المؤمنون مثقلًا بالدين أو الفداء بينهم من غير إعانة بالمعروف.
- 4- يقف المؤمنون جميعًا في وجه من بغى أو طلب ظلمًا أو عدوانًا أو فسادًا، ولو كان قريبًا لأحدهم.
- 5- لا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.
- 6- ذمة الله واحدة، يحجر على المؤمنين أدناهم، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض دون الناس.
- 7- لا يجوز لمن أقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، ومن فعل ذلك تحمل تبعة فعله.
- 8- يسهم اليهود في النفقة مع المؤمنين ما دام أهل الصحيفة في حال حرب مشتركة.
- 9- يهود بني عوف داخلون في جماعة أهل الصحيفة في الحقوق العامة، مع احتفاظ اليهود بدينهم والمسلمين بدينهم، ولا يتحمل تبعة الظلم والإثم إلا فاعله.
- 10- على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وبينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة، والنصح والبر دون الإثم.
- 11- ما وقع بين أهل الصحيفة من نزاع يخاف فساده يرد إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 12- من خرج من المدينة أو أقام فيها فهو آمن، إلا من ظلم وأثم.
- 13- الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وهو جار لمن بر واتقى.

العبر والدلائل

أولاً: الدلالات الدستورية للوثيقة

تُعد هذه الوثيقة بمثابة الدستور الأول للدولة الإسلامية، حيث شملت جميع الجوانب التنظيمية التي يحتويها أي دستور حديث، سواء في تنظيم العلاقات الداخلية بين أفراد المجتمع أو في تحديد علاقات الدولة مع الآخرين.

ثانياً: مظاهر العدالة في الوثيقة

اتسمت الوثيقة بعدالة واضحة في معاملة اليهود، حيث منحتهم حقوقاً كاملة واعترفت بدينهم وأموالهم. وكان من الممكن أن تؤتي هذه المعاملة العادلة ثمارها لولا طبيعة اليهود المعروفة بالمكر والغدر، مما جعل المسلمين في حل من التزاماتهم تجاههم.

ثالثاً: الأحكام الشرعية المستفادة من الوثيقة

الوحدة الإسلامية: يؤكد البند الأول أن الإسلام هو الرابط الوحيد الذي يوحد المسلمين ويجعلهم أمة واحدة، حيث تذوب جميع الفوارق القبلية والاجتماعية في إطار هذه الوحدة الشاملة.

التكافل الاجتماعي: يدل البندان الثاني والثالث على أن التكافل والتضامن من السمات الأساسية للمجتمع الإسلامي، حيث يتحمل المسلمون مسؤولية بعضهم البعض في جميع الشؤون الدنيوية والدينية.

المساواة في الحقوق: يظهر البند السادس الدقة في تطبيق مبدأ المساواة بين المسلمين، حيث أن ذمة أي مسلم محترمة وجواره مصون. وقد تجلّى هذا المبدأ عملياً في قصة أم هانئ بنت أبي طالب ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فقالت: (يا رسول الله زعم ابن أُمّي أنه قاتل رجل أجزته: فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ) رواه الشيخان.

المرجعية الشرعية: يؤكد البند الحادي عشر أن الحكم الوحيد الذي يجب أن يلجأ إليه المسلمون في خصوماتهم هو شريعة الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن البحث عن حلول خارج هذا الإطار يؤدي إلى الشقاء والعذاب.

النتائج المترتبة على تطبيق الوثيقة: بفضل تطبيق هذه الوثيقة والالتزام بأحكامها، قامت الدولة الإسلامية على أسس متينة، وانتشرت في أنحاء العالم حاملةً أرقى مظاهر الحضارة والمدنية الصحيحة التي عرفتتها الإنسانية.

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- لماذا كان بناء المسجد أول مشروع جامع في المدينة؟
- 2- كيف عاجلت المؤاخاة الآثار الاجتماعية والاقتصادية للهجرة؟
- 3- ما أبرز المبادئ الدستورية التي تضمنتها وثيقة المدينة؟
- 4- كيف جمعت الوثيقة بين وحدة الجماعة واحترام التعدد الديني؟

المحاضرة السادسة غزوتا بدر وأحد

مضامين المحاضرة

- ١- الانتقال إلى مرحلة الدفاع المسلح وسياق غزوة بدر الكبرى.
- ٢- الشورى والتخطيط والدعاء وأسباب النصر في بدر.
- ٣- أسباب غزوة أحد ومراحلها وآثار مخالفة الرماة للأمر.
- ٤- الأحكام التربوية والفقهية المتعلقة بالأسرى والشهداء والانضباط.

مرحلة الحرب الدفاعية

غزوة بدر الكبرى 23

وقعت غزوة بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية للهجرة، بعد الإذن للمسلمين بالقتال وسبق عدد من السرايا والغزوات التي لم يقع في أكثرها قتال. وكانت بدر أول مواجهة كبرى فاصلة بين المسلمين وقريش، لا أول خروج عسكري للنبي صلى الله عليه وسلم.

سبب الخروج: بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن غيراً عظيمة لقريش عائدة من الشام يقودها أبو سفيان بن حرب، فندب أصحابه لاعتراضها في سياق الصراع القائم مع قريش، وبعد ما استولت عليه من أموال المهاجرين في مكة. ولم يكن المسلمون عند خروجهم يتوقعون مواجهة جيش كبير؛ لذلك خف بعضهم وتناقل آخرون. استنفار قريش: كان أبو سفيان يتحسس الأخبار، فلما علم بخروج المسلمين استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة يستنفر قريشاً لحماية أموالها، في حين غير هو طريق القافلة وسلك بها ناحية الساحل. خرجت قريش في جيش يقارب ألف مقاتل، ومعه عدد من زعمائها وأشرافها، قاصدة حماية العير وإظهار قوتها. وقد تخلف بعض رجالها أو أنابوا عنهم غيرهم، فلا يصح إطلاق القول إن أحداً من أشراف قريش لم يتخلف.

23 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص168-180؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص606-653؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج3، ص256-311.

خروج المسلمين: خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة في رمضان ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً؛ واختلفت الروايات في ضبط العدد بين ثلاثمائة وثلاثة عشر وما يقاربه. وكان معهم نحو سبعين بغيراً يتعاقب الرجال والثلاثة على البعير، ولم يخرجوا مستعدين ابتداءً لقتال جيش قريش.

نجاة العير: تمكن أبو سفيان من الإفلات بالقافلة حين سلك طريق الساحل وترك بدرًا عن يساره، ثم أرسل إلى جيش قريش يخبرهم بنجاتها ويدعوهم إلى الرجوع.

الشورى بعد تغير الموقف: لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر خروج قريش، استشار أصحابه في المضي لملاقاتها، فتكلم عدد من المهاجرين وأحسنوا القول.

موقف المقداد بن عمرو: أعلن المقداد رضي الله عنه ثبات المهاجرين واستعدادهم للمضي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله به، وخالف موقف بني إسرائيل من موسى عليه السلام.

موقف الأنصار: كرر النبي صلى الله عليه وسلم طلب المشورة، ففهم سعد بن معاذ رضي الله عنه أنه يريد رأي الأنصار؛ لأن بيعة العقبة كانت مرتبطة بحمايته داخل المدينة. فأكد سعد صدقهم بعهودهم واستعدادهم للقتال معه، فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وبشر أصحابه بإحدى الطائفتين.

جمع المعلومات: بعث النبي صلى الله عليه وسلم من يتحسس أخبار القافلة والجيش، واستنطق من وقع في أيدي المسلمين من سقاة قريش، فعرف من عدد ما ينحرونه كل يوم أن الجيش يتراوح بين تسعمائة وألف، وأن فيه عددًا كبيرًا من زعماء قريش.

إصرار أبي جهل: بعد نجاة العير دعا أبو سفيان قريشًا إلى الرجوع، ورأى بعض رجالها ذلك، غير أن أبا جهل أصر على بلوغ بدر والإقامة عندها أيًا ما ليظهر قوة قريش وهيبتها بين العرب، فتابعه جمهور الجيش.

النزول عند ماء بدر: تورد كتب المغازي خبر مشورة الحباب بن المنذر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم في الانتقال إلى موضع أقرب إلى ماء القوم، وقبول النبي صلى الله عليه وسلم رأيه. والخبر مشهور في كتب السيرة، غير أن طرقه لا تخلو من مقال؛ لذلك يذكر على جهة الاستئناس لا على درجة الأخبار الصحيحة.

العريش: وتذكر روايات السيرة أن سعد بن معاذ رضي الله عنه اقترح بناء عريش للنبي صلى الله عليه وسلم، ليكون موضع قيادة وحماية، فبني له. وهذه الرواية مشهورة في كتب المغازي، لكن إسنادها ليس في قوة الأخبار الثابتة في الصحيحين.

الإخبار بمصارع رجال من قريش: ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار عشية بدر إلى مواضع مصرع عدد من المشركين، فما جاوز أحد منهم الموضع الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم. الدعاء والاستغاثة: استقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة يوم بدر، ومد يديه يناشد ربه النصر وإنجاز الوعد حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فجاء أبو بكر رضي الله عنه فردّه عليه وطمأنه بأن الله منجز له ما وعده. ونزل في ذلك قوله تعالى عن استغاثة المؤمنين وإمدادهم بالملائكة.

سير القتال ونتيجته: التقى الجمعان يوم بدر، وأيد الله المؤمنين بالملائكة، ورمى النبي صلى الله عليه وسلم المشركين بقبضة من الحصباء. وانتهت المعركة بانتصار المسلمين؛ فقتل من المشركين نحو سبعين وأسر نحو سبعين، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً.

أهل القليب: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلى من صناديد قريش فألقوا في قليب من قلب بدر، ثم خاطبهم بعد ثلاث، مبيّناً أنه وجد وعد ربه حقاً. ولما سأله عمر رضي الله عنه عن خطاب أجساد لا أرواح لها، أخبره أنهم ليسوا بأسمع لما يقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون جواباً.

أسرى بدر: استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأسرى؛ فرأى أبو بكر رضي الله عنه قبول الفداء رجاء أن يهديهم الله وأن يكون المال قوة للمسلمين، ورأى عمر رضي الله عنه قتل رؤوس الكفر. فمال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفداء، وعومل الأسرى بعد ذلك بحسب أحوالهم بين الفداء والمن والإطلاق.

مراجعة الوحي في شأن الأسرى: ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه بكيا لما عرض من أخذ الفداء قبل استكمال الإثخان في العدو، ونزلت آيات سورة الأنفال في شأن الأسرى والغنائم. ويبين الخبر أن الاختيار وقع أولاً على الفداء، ثم جاء الوحي بالتوجيه والتصويب.

العبر والعظات

الدروس المستفادة من غزوة بدر الكبرى:

أولاً: القصد الإلهي وتحويل المسار

خرج المسلمون في البداية بقصد استعادة أموالهم التي سلبتها قريش في مكة، عن طريق الاستيلاء على القافلة التجارية القادمة من الشام. لكن الله تعالى أراد لهم أمراً أعظم، فصرف عنهم القافلة وهياً لهم مواجهة عسكرية مع قريش. وهذا يدل على أن أموال المحاربين تعتبر غنيمة حلال للمسلمين، خاصة للمهاجرين الذين فقدوا ممتلكاتهم في مكة. وقد جاء في القرآن الكريم بما يؤكد هذه الحكمة الإلهية: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٧﴾ الأنفال: 7-8.

ثانياً: أهمية الشورى والسياسة الشرعية

عندما تفاجئ المسلمون بخروج جيش قريش، تشاور الرسول مع أصحابه في الأمر. وهذا يثبت مبدأ الشورى كأصل تشريعي في الإسلام. كما أن القرارات العسكرية والسياسية تخضع لما يعرف بالسياسة الشرعية، حيث يراعي الإمام ظروف الزمان والمكان، وحالة المسلمين وأعدائهم، فيتخذ القرار المناسب سواء كان حرباً أو صلحاً.

ثالثاً: حقيقة المبايعة والالتزام

بيعة الأنصار للرسول في مكة لم تكن مجرد اتفاق حماية، بل كانت التزاماً بدين الله وشرعه. وقد عبر سعد بن معاذ عن هذا الالتزام بقوله: "لقد آمنا بك وصدقناك... فامض لما أردت فنحن معك". وهذا يتوافق مع قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ}

رابعاً: استخدام الوسائل العسكرية المشروعة

يجوز للإمام استخدام الوسائل العسكرية المشروعة كالعيون والمراقبين، وقد يكون ذلك متطلباً للتنعيم أو أنواع من المخادعة الحربية، ما دام ذلك يصب في مصلحة المسلمين وحمايتهم.

خامساً: طبيعة تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم

ليست كل تصرفات الرسول تشريعية ملزمة، فبعضها يرجع إلى كونه بشراً يفكر ويدبر، وبعضها الآخر بصفته إماماً ورئيس دولة. ففي غزوة بدر، قبل الرسول مشورة الحباب بن المنذر في تغيير موقع المعسكر، مما يدل على جواز الاجتهاد في الأمور العسكرية.

سادساً: التضرع والدعاء وسيلة النصر

بالرغم من وعد الله بالنصر، إلا أن الرسول وأصحابه أخذوا بالأسباب المعنوية بالتوازي مع الأسباب المادية، فتجلى ذلك في تضرعهم إلى الله وبذلهم للدعاء. وهذا يؤكد أن النصر من عند الله، وأن وسيلته تحقيق العبودية الخالصة له.

سابعا: الإمداد بالملائكة معجزة إلهية

كان إمداد الله للمسلمين بالملائكة في بدر معجزة واضحة، ثبتت بنصوص القرآن والسنة الصحيحة. وقد رأى الرسول جبريل عليه السلام في المعركة، مما كان بمثابة بشرى من الله بنصره، كما في الحديث الذي رواه البخاري: "أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على النقع".

ثامنا: الحياة البرزخية وحقيقة الموت

حوار الرسول مع قتلى المشركين بعد إلقاءهم في القليب يدل على أن للموتى حياة برزخية خاصة، مما يؤكد حقيقة عذاب القبر ونعيمه. وقد رد الرسول على استفسار عمر بقوله: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم".

تاسعا: مسألة الأسرى واجتهاد الرسول

مسألة أسرى بدر تدل على جواز اجتهاد الرسول في الأمور التشريعية، وأنه قد يخطئ في الاجتهاد ثم يصوب بالوحي. كما أن الغزوة مثلت أول تجربة للمسلمين مع الغنائم، فأنزل الله فيها آيات بينات لتربيتهم وتعليمهم، حيث قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

غزوة أحد 24

أسباب الغزوة والاستعداد لها: عزم زعماء قريش بعد بدر على الثأر لقتلهم واستعادة هيبتهم، واستعانوا بأرباح العير التي سلمت بقيادة أبي سفيان في تجهيز الجيش. وانضم إليهم حلفاؤهم من كنانة والأحابيش، وخرج معهم عدد من النساء للتحريض، وبلغ جيشهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل.

الشورى في الخروج: لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر قريش، استشار أصحابه بين البقاء في المدينة وملاقاة العدو خارجها. فمال هو وعدد من كبار الصحابة إلى التحصن بالمدينة، ورغب جماعة ممن فاتهم بدر في الخروج.

24 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص187-201؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص60-105؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج4، ص11-57.

فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على رأيهم وليس لأئمة، فلما خافوا أن يكونوا قد أكرهوه عرضوا عليه الرجوع إلى رأيهم، فقال إنه لا ينبغي لنبي إذا لبس لأئمة أن يضعها حتى يقاتل.

انخدال عبد الله بن أبي: خرج النبي صلى الله عليه وسلم في نحو ألف رجل في شوال من السنة الثالثة للهجرة، واختلف أهل السيرة في تعيين اليوم. ولما اقترب الجيش من أحد رجوع عبد الله بن أبي بن سلول بنحو ثلثه محتجاً بأن رأيهم في البقاء داخل المدينة لم يؤخذ به، فبقي مع النبي صلى الله عليه وسلم نحو سبعمائة مقاتل. حاول عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه رد المنسحبين، فقالوا: لو نعلم أن قتلاً سيقع لاتبعناكم. وثبت في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن المسلمين اختلفوا في شأنهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ (النساء: 88).

الاستعانة بغير المسلمين: تذكر بعض روايات السيرة أن جماعة من اليهود عرضوا الخروج، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل الاستعانة بهم. وتختلف أسانيد الروايات وألفاظها في هذه المسألة؛ لذلك لا يستقل هذا الخبر وحده بتقرير حكم عام من غير جمع النصوص وأقوال الفقهاء.

تنظيم الجيش: جعل النبي صلى الله عليه وسلم ظهور المسلمين إلى جبل أحد، ووضع خمسين من الرماة على جبل عينين بقيادة عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأمرهم بحماية ظهور المسلمين وألا يتركوا موضعهم سواء رأوا النصر أم رأوا الهزيمة.

إجازة صغار السن: عرض النبي صلى الله عليه وسلم عددًا من الفتيان، فرد من لم يبلغ السن أو لم يطق القتال، وأجاز من ظهر له تمكنه. وتورد كتب المغازي خبر إجازة رافع بن خديج لمهارته في الرمي، ثم إجازة سمرة بن جندب بعد أن ذكر أنه يصرع رافعاً؛ وهذه التفاصيل مشهورة في السيرة، وأسانيدنا دون درجة ما ثبت في الصحيح.

بداية القتال: ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض سيفاً وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه وقاتل به قتالاً شديداً. وتذكر روايات السيرة عصابته الحمراء ومشيته بين الصفيين. وحمل مصعب بن عمير رضي الله عنه لواء المسلمين، وكان خالد بن الوليد على خيل قريش قبل إسلامه، وبدأ القتال بتقديم واضح للمسلمين.

تحول مسار المعركة: لما رأى أكثر الرماة انكشاف المشركين ظنوا أن القتال انتهى، فنزلوا يطلبون الغنيمة، مع بقاء عبد الله بن جبير وقلة معه متمسكين بأمر النبي صلى الله عليه وسلم. فانتهاز خالد بن الوليد خلوا الجبل، والتف بخيل المشركين من الخلف، وقتل من بقي من الرماة، واضطرب صف المسلمين بعد أن كانوا متقدمين.

إصابة النبي صلى الله عليه وسلم: اشتد القتال حول النبي صلى الله عليه وسلم، فأصيبت ربايعته وشج وجهه ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته. وثبت في الصحيح أن فاطمة رضي الله عنها كانت تغسل الدم وعلي رضي الله عنه يصب الماء بالمجن، فلما زاد الماء الدم أخذت قطعة حصير فأحرقتها وألصقت رمادها بالجرح حتى استمسك.

شائعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم: انتشر في الميدان أنه قتل، فاضطرب بعض المسلمين وثبت آخرون. وكان أنس بن النضر رضي الله عنه ممن اندفعوا إلى القتال حتى قتل، وقد وجد في جسده بضع وثمانون ضربة وطعنة ورمية، فعرفته أخته ببنانه كما ثبت في صحيح البخاري.

حماية النبي صلى الله عليه وسلم: اجتمع حوله عدد من الصحابة يذودون عنه، وبذلوا في ذلك جهداً كبيراً، حتى قتل وجرح عدد منهم، وتمكنوا من نقله إلى موضع أكثر أمناً في الجبل.

ثبت في صحيح البخاري أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان يترس على النبي صلى الله عليه وسلم بحففة له، وكان رامياً شديد النزع، فإذا أشرف النبي صلى الله عليه وسلم لينظر إلى القوم قال: بأبي أنت وأمي، لا تشرف؛ يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك.

وتورد كتب السيرة صوراً أخرى من الذب عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها ترس أبي دجانة عليه بظهره، وقتال رجال من الأنصار دونه حتى جرحوا أو قتلوا. وتختلف الروايات في أسماء بعض هؤلاء وتفاصيل وفاتهم، فيثبت أصل التضحية ويحتاط في التفاصيل التي لم تسند إسناداً قوياً.

الشهداء والدفن: انتهى القتال وقد استشهد من المسلمين نحو سبعين، وفيهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر رضي الله عنهم. وثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ويسأل أيهما أكثر أخذاً للقرآن فيقدمه في اللحد، ودفنوا بدمائهم ولم يغسلوا. أما الصلاة عليهم فوردت روايات متعددة، وأصحها أنه لم يصل عليهم صلاة الجنازة عند دفنهم، ثم صلى على أهل أحد بعد ثماني سنين صلاة مودع للأحياء والأموات.

نزلت آيات من سورة آل عمران تعقب على أحداث أحد، فبينت أسباب ما وقع، وما ظهر من أحوال المؤمنين والمنافقين، وربطت النتيجة بمخالفة بعض الرماة وتنازعهم. ويمتد السياق من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ إلى الآيات التي تناولت أقوال القاعدين والشهداء والاستجابة بعد القرع (آل عمران: 121-175).

رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة بعد انتهاء القتال، وقضى المسلمون ليلتهم يداوون جراحهم ويتابعون أخبار قريش.

الخروج إلى حمراء الأسد: في صباح اليوم التالي ندب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى طلب العدو، وأمر ألا يخرج معه إلا من شهد أحد، ورخص لجابر بن عبد الله رضي الله عنه لعذره. فخرج المسلمون على ما بهم من جراح حتى بلغوا حمراء الأسد، على نحو ثمانية أميال من المدينة، وأقاموا فيها يظهرون الاستعداد والثبات. كان أبو سفيان ومن معه قد تحدثوا في الرجوع إلى المدينة، فمر بهم معبد بن أبي معبد الخزاعي بعد أن لقي المسلمين بحمراء الأسد، ووصف لهم قوة من خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم وشدة طلبهم لقريش. فألقي خبره الرعب في نفوسهم، فعدلوا عن الرجوع ومضوا إلى مكة.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد أياماً، ثم رجع إلى المدينة بعد أن تحقق المقصود من إظهار تماسك المسلمين وردع قريش عن استئناف الهجوم. وقد ربط القرآن هذا الخروج بالذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع.

العبر والعظات

الدروس المستفادة من غزوة أحد

أولاً: أهمية الشورى في الإسلام وتطبيقاتها العملية

تمثل غزوة أحد نموذجاً حياً لمبدأ الشورى في الإسلام، حيث حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على مشاورة أصحابه في قرار الخروج للقتال. فقد جمع المسلمين واستمع لآرائهم المتباينة، فكان من الصحابة من رأى البقاء في المدينة، وآخرون فضلوا الخروج لملاقاة العدو. هذا الموقف يعلم الأمة أن القائد الناجح هو من يأخذ برأي أصحابه، ويستشير أهل الخبرة منهم. وقد أثبتت الأحداث لاحقاً صحة رأي من فضل البقاء في المدينة، مما يؤكد أن الشورى وإن لم تؤد إلى الرأي الأصوب دائماً، إلا أنها تظل منهجاً إلهياً يحقق التماسك والوحدة.

ثانياً: موقف المنافقين وتحليل نفسياتهم

كشفت الغزوة عن الوجه الحقيقي للمنافقين، حيث انسحب عبد الله بن أبي بثلث الجيش. وهذا الموقف يخبرنا أن المنافقين يبحثون دائماً عن المكاسب دون تحمل التبعات. وقد وصف القرآن هذا الصنف من الناس بقوله: ﴿وإذا جاءوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾. فهم يتربصون بالمسلمين، ويحاولون النيل من عزيمتهم عند أول اختبار. وهذا يدعو المسلمين إلى الحذر من أمثال هؤلاء، وتمييز الصادق من المنافق.

ثالثاً: حكم الاستعانة بغير المسلمين وضوابطها

رفض الرسول صلى الله عليه وسلم الاستعانة باليهود رغم وجود ميثاق بينهم، قائلاً: "لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك". وهذا الموقف يضع أصولاً مهمة في العلاقات الدولية في الإسلام. فقد ذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز الاستعانة بالكفار إلا في حالات الضرورة القصوى، وبشروط صارمة تضمن عدم سيطرتهم أو تأثيرهم على القرار.

رابعاً: التضحية والفداء في سن مبكرة

موقف سمرة بن جندب ورافع بن خديج -وهما في الخامسة عشرة من العمر- يقدم نموذجاً رائعاً للتربية الإسلامية. فقد أصرا على المشاركة في القتال رغم صغر سنهما، مما يدل على أن الإيمان الحقيقي لا يعترف بالسن، فالشباب حين يربى على الإيمان، يصبح قادراً على تحمل المسؤوليات الجسام.

خامساً: البراعة العسكرية والنبوة

أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة براعة فائقة في التخطيط العسكري. فقد اختار موقعاً استراتيجياً، ووضع الرماة في مكان محكم، وأعطاهم توجيهات دقيقة. وهذا يثبت أن النبوة لا تتعارض مع احتراف فنون القتال. بل إن الإسلام يحث على إتقان كل ما ينفع الأمة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".

سادساً: أحكام مظاهر العزة في الحرب

موقف أبي دجانة عندما تبختر بين الصفوف، وإقرار الرسول له بذلك، يقدم درساً في الفقه الدقيق. فما يكون مذموماً في حال السلم، قد يكون ممدوحاً في حال الحرب. وهذا يدخل في باب "المشاعر المعنوية" التي يحتاجها المجاهدون. وقد قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾. فإرهاب العدو مقصد شرعي، والتبخر في الحرب من وسائل تحقيق هذا المقصد.

سابعاً: تحليل مراحل المعركة وعبر الالتزام بالتعليمات

يمكن تقسيم المعركة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: التزام المسلمين بتعليمات القائد، فحققت الآية: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِإِذْنِهِ}

المرحلة الثانية: مخالفة الرماة لأمر القائد، فتحول النصر إلى هزيمة، مصداقاً لقوله: { حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ }

وهذا يعلمنا أن النصر مرتبط بالانضباط وطاعة القائد، وأن المخالفة ولو من قلة قد تؤدي إلى هزيمة الأمة كلها.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: 152.

ثامناً: سر التضحية والفداء وأثره في النفوس

تجلت في الغزوة صور رائعة للتضحية، من أبرزها موقف سعد بن الربيع الذي فضل حماية الرسول على حياته، وهذا يدل على أن المحبة الحقيقية تدفع إلى البذل والتضحية. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين". وهذه المحبة لا تتحقق إلا بالتربية الإيمانية العميقة، القائمة على المعرفة الصحيحة، وكثرة الذكر والصلاة على الرسول.

تاسعاً: الأحكام الفقهية للشهداء

استنبط العلماء من دفن شهداء أحد بدمائهم عدة أحكام:

- الشهيد لا يغسل ولا يصلى عليه

- يجوز الجمع بين أكثر من شهيد في القبر عند الضرورة

- تقديم الأكثر قرآناً في اللحد

وهذه الأحكام تدل على المكانة الرفيعة للشهداء عند الله، وتشكل تشريعاً متكاملاً للتعامل معهم.

عاشراً: العبرة من الخروج إلى حمراء الأسد

خرج الرسول وأصحابه المجروحون إلى حمراء الأسد، ليظهروا قوة المسلمين رغم الهزيمة. وهذا يعلمنا أن النكسة لا

تعني الاستسلام، وأن الأمة المجيدة قادرة على النهوض بعد السقوط، وقد مدح الله هذا الموقف في قوله: ﴿

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ آل عمران: 172.
فهذا درس في الصمود والثبات، والاستعداد الدائم للمواجهة.

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- ما الظروف التي أدت إلى وقوع غزوة بدر؟
- 2- كيف تجلت الشورى في تدبير بدر وأحد؟
- 3- ما أثر مخالفة الرماة في مسار غزوة أحد؟
- 4- ما أهم الدروس المشتركة بين بدر وأحد في فهم أسباب النصر والهزيمة؟

المحاضرة السابعة الأحزاب وبنو قريظة والحديبية وخيبر

مضامين المحاضرة

- ١ - غزوة الأحزاب وتجديد وسائل الدفاع وأثر الثبات ووحدانية الصف.
- ٢ - موقف بني قريظة وأحكام العهد والتحكيم والاجتهاد.
- ٣ - صلح الحديبية وبيعة الرضوان وما ترتب عليهما من فتح دعوي.
- ٤ - غزوة خيبر وأحكام الغنائم والمساقاة وبعض دلائل النبوة.

غزوة الأحزاب (الخنديق) 25

تاريخ الغزوة: وقعت غزوة الأحزاب في شوال من السنة الخامسة للهجرة على قول جمهور أهل المغازي، وقيل في السنة الرابعة. ومنشأ الخلاف ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما في عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة، ويوم الخندق وهو ابن خمس عشرة، وقد جمع العلماء بين الروايات بوجوه متعددة.

سبب الغزوة: خرج نفر من زعماء بني النضير وغيرهم إلى مكة، فحرضوا قريشاً على حرب النبي صلى الله عليه وسلم، ووعدوها بالنصرة. وتذكر كتب التفسير والسيرة أن في موقفهم نزل قوله تعالى في الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ويقولون للكفار إنهم أهدي من المؤمنين سبيلاً (النساء: 51-52).

ثم انتقل المحرضون إلى غطفان وبني فزارة ومرة وأشجع، واستمالوهم إلى المشاركة، فاجتمعت قريش وحلفاؤها وقبائل من غطفان في تحالف واسع قصد المدينة؛ ولذلك سميت الغزوة غزوة الأحزاب.

الاستعداد وحفر الخندق: لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر الأحزاب، استشار أصحابه. واشتهر في كتب السيرة أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار بحفر الخندق في الجهة المكشوفة من المدينة، وهي وسيلة لم تكن مألوفاً في حروب العرب. فعسكر المسلمون وجبل سلع خلفهم، وشاركوا في الحفر. وتقدر روايات المغازي المسلمين بنحو ثلاثة آلاف، والأحزاب بنحو عشرة آلاف، وهي أعداد تقريبية نقلها أهل السيرة.

25 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص233-245؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص214-240؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج4، ص108-134.

مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في الحفر: ثبت في صحيح البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ينقل تراب الخندق حتى وارى التراب بياض بطنه، وكان يرتجز مع أصحابه ويدعو للأنصار والمهاجرين.

وكان المهاجرون والأنصار يقولون وهم يعملون: «نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا». وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجيبهم داعيًا: «اللهم إن الخير خير الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»؛ وجاءت ألفاظ متقاربة في الروايات الصحيحة.

تكثر طعام جابر: ثبت في صحيح البخاري أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما رأى شدة الجوع بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأعد مع زوجته طعامًا قليلًا ودعاه مع نفر يسير. فنادى النبي صلى الله عليه وسلم أهل الخندق، وبارك في الطعام، فأكل الجمع وشبعوا وبقي منه. وثبت كذلك أنه ضرب كدية شديدة اعترضت الحفر حتى عادت رملاً يسيل.

موقف المؤمنين والمنافقين: ذكر ابن إسحاق أن المنافقين كانوا يتسللون من العمل بغير إذن، بينما كان المؤمن إذا عرضت له حاجة استأذن ثم عاد. وربط ابن إسحاق ذلك بقوله تعالى في الاستئذان عند الأمر الجامع (النور: 62)، وهو تفسير منقول في كتب السيرة.

نقض بني قريظة للعهد: قصد حيي بن أخطب كعب بن أسد، سيد بني قريظة، وألح عليه حتى حمله على نقض العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم. فلما بلغ الخبر المسلمين بعث النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ وسعد بن عباد ورجالاً ليتحققوا، فعادوا بما يدل على صحة الخبر من غير أن يصرحوا به أمام الناس حتى لا تضعف معنوياتهم.

اشتداد الحصار: اجتمع على المسلمين خطر الأحزاب من خارج المدينة وخطر بني قريظة من داخلها، وظهر اضطراب المنافقين، كما وصف القرآن في سورة الأحزاب. وتذكر روايات السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم فاوض عيينة بن حصن والحارث بن عوف على ثلث ثمار المدينة لينصرفا بغطفان، ثم شاور سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فاختارا الصبر ورفض إعطاء الثمار ما دام الأمر رأيًا لا حيًا.

لم يتم الصلح مع غطفان، وبقي الأمر في حدود المفاوضة والمراوضة، ولم تكتب شهادة ملزمة ولا عقد نافذ، كما صرح ابن إسحاق.

الحصار ومحاولات العبور: فوجئ الأحزاب بالخذق، فأقاموا يحاصرون المسلمين وتبادل الطرفان الرمي والمناوشات. وتمكن نفر من فرسان قريش من عبور موضع ضيق؛ وتشتهر في كتب المغازي مبارزة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو بن عبد ود وقتله، مع اختلاف أهل الحديث في قوة طرق تفاصيلها.

انتهاء الحصار: لم تقع معركة شاملة، لكن الحصار شهد مناوشات وإصابات. ثم صرف الله الأحزاب عن المدينة بعد أن تفرقت كلمتهم وأرسل عليهم ريحًا شديدة وجنودًا لم يرها المسلمون، كما نص القرآن في سورة الأحزاب. خطة نعيم بن مسعود: تروي كتب السيرة أن نعيم بن مسعود رضي الله عنه أسلم في أثناء الحصار، وكتب إسلامه، وأذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يخذل عن المسلمين. فأوقع الشك بين بني قريظة وقريش وغطفان في مسألة الرهائن، فضعفت الثقة بينهم. وأصل أن «الحرب خدعة» ثابت في الصحيح، أما تفاصيل الخطة فمروية في كتب المغازي بأسانيد متفاوتة.

الريح والبرد: أرسل الله في ليلة شديدة البرد ريحًا قلبت قدور الأحزاب واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم، بعد حصار امتد أيامًا طويلة. فاجتمع عليهم الخوف والبرد واضطراب التحالف، وتهيؤوا للرحيل. **استطلاع حذيفة رضي الله عنه:** ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من يأتيه بخبر القوم، ثم عين حذيفة بن اليمان رضي الله عنه. فدخل معسكر الأحزاب في ليلة باردة شديدة الريح، ورأى استعدادهم للرحيل، ثم رجع فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وتورد روايات السيرة أن أبا سفيان أمر كل رجل أن يتعرف من بجانبه خشية العيون، وأنه أعلن عدم صلاح المكان للإقامة بعد هلاك الدواب وشدة الريح واضطراب العلاقة بيني قريظة، ثم ارتحل بقريش وتبعتهم القبائل. في الصباح انصرف الأحزاب عن المدينة، ورجع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من مواضعهم بعد زوال الخطر، وانتهت محاولة قريش الكبرى لاجتياح المدينة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء في أيام الحصار، وثبت في الصحيحين من دعائه: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».

قضاء الصلاة: ثبت في الصحيحين أن صلاة العصر تأخرت يوم الخندق بسبب شدة القتال والانشغال حتى غربت الشمس، فصلاها النبي صلى الله عليه وسلم ثم صلى المغرب. وجاءت روايات بذكر أكثر من صلاة، وجمع العلماء بينها بأن ذلك وقع في أوقات أو أحوال متعددة من أيام الحصار.

العبر والعظات

الدروس والعبر من غزوة الأحزاب

أولاً: تجديد الوسائل الحربية وأخذ الحكمة من الآخرين

تمثل غزوة الأحزاب نقلة نوعية في فنون الحرب عند المسلمين، حيث أدخلوا أسلوباً دفاعياً جديداً لم تعهده العرب من قبل، وهو نظام الخنادق. وهذا الأسلوب الذي اقترحه سلمان الفارسي - وهو من أصل فارسي - يدل على سعة أفق الإسلام ومرونته، واستعداده للأخذ بأسباب التقدم من أي مصدر جاءت. لقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفكرة برحابة صدر، مع أنها جاءت من ثقافة غير عربية، مما يؤكد أن الإسلام لا يعترف بالجمود والتقليد، بل يدعو إلى الابتكار والتطوير. وفي هذا رد على من يحصرون الإسلام في أطر ضيقة، أو يرفضون كل ما هو جديد بدعوى أنه بدعة.

ثانياً: المساواة العملية وذوبان الطبقية في المجتمع الإسلامي

تشهد غزوة الأحزاب على تجسيد حي لمبدأ المساواة الإسلامية، فالنبي صلى الله عليه وسلم - وهو قائد الأمة وأشرف الخلق - لم يقف موقف الأمر الناهي فقط، بل نزل إلى الميدان وعمل كأحد أفراد المجتمع. لقد شارك في حفر الخندق، وحمل التراب على ظهره، وتحمل الجوع والعطش مثل أي فرد من أفراد جيشه. هذا الموقف العملي يعلن بوضوح أن الإسلام لا يعترف بالامتيازات الطبقية، ولا يقر التفاوت الاجتماعي. فجميع الأمة سواسية في الحقوق والواجبات، والتفاضل بينهم يكون بالتقوى والعمل الصالح فقط.

ثالثاً: معاني النبوة والتضحية في شخصية الرسول

تكشف الغزوة عن جوانب عميقة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، فنجد أنه يتحمل الجوع مع أصحابه، ويشتد الحجر على بطنه ليخفف آلام الجوع. وهذا الموقف ليس مجرد مشاركة عابرة، بل هو تجسيد لمسؤولية القيادة في الإسلام، حيث يتحمل القائد مع شعبه في السراء والضراء. كما تظهر محبته لأصحابه في رفضه الانفراد بالطعام عندما دعاه جابر، مع أن الطعام كان قليلاً لا يكفي إلا لعدد قليل. وهنا تظهر المعجزة الحسية في تكثير الطعام، تأييداً من الله لرسوله، وتقديراً لموقفه النبيل.

رابعاً: الحكمة التربوية في استشارة الصحابة

عندما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه فكرة الصلح مع غطفان، لم يكن ذلك بسبب ترده أو شكه في نصر الله، بل كان درساً تربوياً عميقاً. لقد أراد أن يختبر مدى ثقة أصحابه بالله، وقوة إيمانهم، واستعدادهم للتضحية. وكان رد سعد بن معاذ نموذجاً للإيمان الراسخ، حين قال: "والله لا نعطيهم إلا السيف". وهذا الموقف يعلمنا أن القائد المسلم يجب أن يكون حريصاً على معرفة مشاعر أتباعه، وأن لا يدفعهم إلى ما لا يطيقون.

خامساً: أسباب النصر الحقيقية وتأيد الله للمؤمنين

رغم كل الاستعدادات المادية التي قام بها المسلمون، من حفر الخندق وتجهيز العدة، إلا أن النصر الحاسم جاء بتأييد إلهي مباشر. فإله تعالى أرسل ريحاً شديدة قلبت معسكر المشركين، وألقى الرعب في قلوبهم. وهذا يؤكد أن الأسباب المادية وحدها لا تكفي للنصر، بل لابد من الاعتماد على الله والتوكل عليه. إن الدعاء والتضرع كانا سلاحاً مهماً من أسلحة المسلمين، كما قال تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}.

سادساً: أحكام فقهية مستفادة من الغزوة

من الأحكام المهمة التي أقرتها الغزوة: وجوب قضاء الصلاة الفائتة بسبب الانشغال في الجهاد. فقد فانت النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر، فقضاها بعد خروج الوقت. وهذا يدل على أن الشريعة تراعي ظروف الناس، وتضع لهم التيسيرات المناسبة. كما أن القضاء هنا يشمل جميع الأعذار، سواء كان النسيان أو النوم أو الانشغال في الجهاد.

غزوة بني قريظة 26

الخروج إلى بني قريظة: ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الخندق ووضع السلاح واغتسل، جاءه جبريل عليه السلام فقال: «قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه»، وأمره بالخروج إلى بني قريظة بعد نقضهم العهد في أثناء حصار الأحزاب. فندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين وسار إليهم.

26 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص245-254؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص233-245؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج4، ص8-24.

الأمر بالإسراع والصلاة: نادى النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه ألا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة. فأدركهم وقت الصلاة في الطريق؛ ففهم فريق أن المقصود التعجيل فصلوا في الوقت، وتمسك فريق بظاهر الأمر فأخروا الصلاة حتى بلغوا بني قريظة. فلما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لم يعنف واحداً من الفريقين. وورد في بعض طرق الحديث ذكر الظهر بدل العصر.

الحصار: تحصن بنو قريظة في حصونهم، فضرب عليهم المسلمون الحصار حتى اشتد عليهم ونزلوا على الحكم. وقدر ابن إسحاق مدة الحصار بخمس وعشرين ليلة، وجاءت تقديرات أقصر في بعض كتب السيرة؛ ولم يعين الحديث الصحيح مدة الحصار، لذلك يذكر الاختلاف دون جزم.

مفاوضات بني قريظة: يروي ابن إسحاق أن كعب بن أسد عرض على قومه ثلاثة خيارات: الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم واتباعه، أو قتل النساء والذرية ثم الخروج للقتال، أو مباغته المسلمين ليلة السبت؛ فرفضوا ذلك كله. وهذه التفاصيل من روايات السيرة التي لم ترد بإسناد متصل في الصحيحين، فلا تحمل على أنها إقرار بأن جميع بني قريظة كانوا موقنين بالنبوة.

النزول على حكم سعد: لما نزل بنو قريظة، طلب الأوس الإحسان إلى حلفائهم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان قد أصيب في الخندق. فقال سعد: تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد حكمت فيهم بحكم الله» أو «بحكم الملك»، بحسب ألفاظ الروايات الصحيحة.

تنفيذ الحكم: نفذ الحكم في الرجال المقاتلين الذين شملهم حكم سعد، وسبيت النساء والذرية وقسمت الأموال وفق أحكام ذلك العصر. وثبت أصل الحكم في الأحاديث الصحيحة، أما أعداد من قتلوا وتفاصيل التنفيذ فتختلف فيها روايات المؤرخين اختلافاً واسعاً، فلا يجزم بعدد محدد. وتذكر رواية ابن إسحاق أن حبي بن أخطب، الذي دخل مع بني قريظة وفاء بوعده لكعب بن أسد، كان ممن قتل.

العبر والعظات

الأحكام المستنبطة من قصة بني قريظة

أولاً: جواز قتال من نقض العهد وأحكام نقض العهد

يؤكد علماء السيرة والحديث أن غزوة بني قريظة أسست لحكم شرعي هام، وهو جواز قتال من ينقض العهد مع المسلمين. وقد جعل الإمام مسلم هذا الحكم عنواناً واضحاً في صحيحه، حيث بين أن العلاقات الدولية في

الإسلام تقوم على أساس الوفاء بالعهود والمواثيق. فالمسلمون ملتزمون باحترام كل اتفاقية صلح أو معاهدة أو أمان يعقدونها مع غيرهم، ما دام الطرف الآخر محترماً لها. ولكن إذا حدث نقض للعهد من قبل الطرف الآخر، فإن للمسلمين الحق في قتالهم دفاعاً عن أنفسهم، وعقوبة لهم على غدرهم، بعد استيفاء شروط الإنذار وإعطاء الفرصة للتراجع عن النقض.

ثانياً: مشروعية التحكيم وأحكامه التفصيلية

تعتبر قضية بني قريظة سابقة قضائية هامة في نظام التحكيم الإسلامي. فقد ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم أن هذه الواقعة تدل على جواز التحكيم في أهم أمور المسلمين، حتى في القضايا المصيرية التي تمس أمن الدولة. ويشترط في المحكم أن يكون مسلماً، عادلاً، صالحاً للحكم، أميناً على مصالح المسلمين. وقد استدل العلماء بهذه الواقعة على مشروعية التحكيم في قضية الخوارج مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ومن الأحكام المهمة أن الحكم يصبح ملزماً بعد صدوره، ولا يجوز الرجوع عنه، بينما يجوز الرجوع قبل إصدار الحكم.

ثالثاً: مشروعية الاجتهاد وتعدد الآراء في الفروع

تشكل واقعة اختلاف الصحابة في فهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة" نموذجاً حياً لتقرير مبدأ الاجتهاد والخلاف المشروع في الفروع. فقد فهم بعض الصحابة النص على ظاهره فأخروا الصلاة حتى وصلوا بني قريظة، بينما فهم آخرون أن المقصود الحث على السرعة فأدوا الصلاة في وقتها. وقبل النبي صلى الله عليه وسلم للرأيين يدل على أن المسائل الاجتهادية التي تختلف فيها الأدلة الظنية، يحق للمسلمين الأخذ بأي رأي منها، ما دام مستنداً إلى دليل معتبر. وهذا من رحمة الله بالأمة، حيث وسع عليها في الفروع لتتمكن من مواجهة مستجدات العصور.

رابعاً: تأكيد اليهود من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

تكشف مفاوضات كعب بن أسد مع بني قريظة عن حقيقة هامة، وهي أن يهود بني قريظة كانوا على يقين تام بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. فقد اعترف كعب صراحة بأن النبي محمد هو الذي تجدون نعته في التوراة. وهذا يدل على أن معارف اليهود بالنبوة كانت واضحة لديهم، ولكن الحقد والحمية الجاهلية منعتهم من الإيمان. وهذا ينطبق على كثير من المكذبين بالدين عبر العصور، فسبب كفرهم ليس الجهل بالحق، وإنما العناد والخوف على المصالح الدنيوية.

خامساً: حكم القيام إكراماً لأهل الفضل

يدل أمر النبي صلى الله عليه وسلم للأتصار بالقيام لسعد بن معاذ عندما أقبل إليهم، على مشروعية القيام تكريماً لأهل الفضل والعلم. وقد بين النووي في شرحه أن هذا النوع من القيام مختلف عن القيام المنهي عنه، الذي يكون فيه القائمون يطيلون القيام على الجالس. واستدل جماهير العلماء بهذه الواقعة على استحباب القيام للقادم من أهل الفضل، خاصة إذا كان قد قدم خدمة للأمة، أو كان عالماً، أو له منزلة في الإسلام.

صلح الحديبية وبيعة الرضوان 27

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة قاصداً العمرة، لا يريد قتالاً، ومعه نحو ألف وأربعمائة من أصحابه؛ وجاء في بعض الروايات أنهم ألف وخمسمائة. وساق الهدي وأحرم من ذي الحليفة ليظهر لقريش والعرب أنه قصد البيت معظمًا له لا محاربة.

الاستطلاع وموقف قريش: بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من خزاعة يتحسس خبر قريش، سماه ابن إسحاق بُسر بن سفيان، وقيل بشر. فأخبره أن قريشاً جمعت الأحابيش وعزمت على صده عن البيت. فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، فأشار أبو بكر رضي الله عنه بالمضي إلى البيت، فإن صدهم أحد قاتلوه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «امضوا على اسم الله».

سلوك الطريق البديل ونزول الحديبية: لما بلغه تقدم خيل قريش بقيادة خالد بن الوليد، سلك بالمسلمين طريقاً وعراً حتى نزلوا بالحديبية. وبركت القصواء، فقال الناس: خلأت القصواء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم أعلن استعدادة لقبول كل خطة تعظم حرمات الله.

الماء وبداية المفاوضات: نزل المسلمون على ماء قليل، فنغد سريعاً. وثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى سهماً فوضع في البئر فجاش ماؤها، وجاءت رواية صحيحة أخرى بفوران الماء من بين أصابعه.

27 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص255-266؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص308-326؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج4، ص239-255.

ثم قدم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه جاء معتمرًا لا مقاتلاً، وعرض هدنة تتيح للناس أن يختاروا موقفهم من الدعوة.

مفاوضة عروة بن مسعود: أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي، فكلّمه النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ما قال لبديل. وكان عروة يمسّ لحية النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء الحديث، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأسه بالسلاح، فكان يبعد يده ويطلب منه ألا يمسّ لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

راقب عروة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى سرعة امتثالهم لأمره وتعظيمهم له وانتفاعهم بفضل وضوئه. فلما رجع إلى قريش أخبرهم أنه وفد على الملوك، فما رأى أصحاب ملك يعظمونه كما يعظم أصحاب محمد محمداً، ونصحهم بقبول ما عرضه عليهم.

كتابة الصلح: أرسلت قريش سهيل بن عمرو، فاتفق الطرفان على الصلح. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكتب، فاعترض سهيل على «بسم الله الرحمن الرحيم» فكتبوا «باسمك اللهم»، واعترض على وصف «محمد رسول الله» فكتبوا «محمد بن عبد الله». وثبت في صحيح مسلم أن علياً امتنع محبةً للنبي صلى الله عليه وسلم عن محو الوصف، فدل النبي صلى الله عليه وسلم على موضعه فمحا بنفسه.

من أبرز الشروط أن يرجع المسلمون عامهم ذلك من غير عمرة، وأن يدخلوا مكة في العام التالي بسلاح المسافرين، وأن يرد المسلمون من يأتيهم من قريش بغير إذن وليه، ولا ترد قريش من يأتيها من المسلمين. وقد شق الشرط الأخير على الصحابة، ولا سيما حين جاء أبو جندل بن سهيل مقيداً، فالتزم النبي صلى الله عليه وسلم بالعهد ووعد بالفرج.

تذكر روايات السيرة أن مدة الهدنة جعلت عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأن القبائل أتيح لها الدخول في عهد أي من الطرفين؛ فدخلت خزاعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل بنو بكر في عهد قريش. وكانت هذه التحالفات ذات أثر مباشر في الأحداث التي انتهت بفتح مكة.

موقف عمر ونزول سورة الفتح: راجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم في بعض شروط الصلح لما بدا فيها من المشقة، فأكد له النبي صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله ولن يعصي ربه وأن الله ناصره. ثم سأل عمر أبا بكر رضي الله عنه، فوافق جوابه جواب النبي صلى الله عليه وسلم. ونزلت سورة الفتح، فعلم المسلمون أن الصلح فتح مبين.

النحر والحلق: أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن ينحروا هديهم ويحلقوا، فتأخروا لما غلب عليهم من الحزن ورجاء تغير الأمر. فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، فأشارت عليه أن يخرج فينحر ويحلق من غير أن يكلم أحداً. فلما فعل، قام الصحابة فنحروا وحلق بعضهم لبعض في شدة ازدحام.

المؤمنات المهاجرات: بعد الرجوع إلى المدينة جاءت نساء مؤمنات مهاجرات، ومنهن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها. فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ﴾ (الممتحنة: 10)، فدل الحكم على أن النساء لا يدخلن في شرط رد الرجال إلى قريش.

بيعة الرضوان: كانت قبل إبرام الصلح، حين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش، فاحتبس وتأخر، وشاع أنه قتل. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى البيعة تحت الشجرة، فبايعوه على الثبات وألا يفروا؛ وجاء في بعض الروايات على الموت، والجمع أن البيعة على الثبات ولو أدى إلى الموت. وتذكر روايات السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل إحدى يديه عن عثمان، ثم ظهر أن خبر قتله غير صحيح.

العبر والعظات

حكمة صلح الحديبية ودروسه المستفادة

أولاً: الحكمة الإستراتيجية من الصلح

يُعد صلح الحديبية من أبرز الأحداث الحكيمة في التاريخ الإسلامي، حيث كان بمثابة المقدمة والتمهيد لفتح مكة. وقد وصفه ابن القيم بأنه "باب الفتح ومفتاحه". فقد أتاح هذا الصلح فرصة ذهبية للمسلمين لنشر الدعوة الإسلامية في أوساط كانت مغلقة أمامهم من قبل. فبعد الهدنة، اختلط المسلمون بالمشركين، وسمعوا القرآن، وناقشوا قضايا الإسلام بأمان، مما أدى إلى دخول أعداد كبيرة في الإسلام خلال السنتين التاليتين للصلح أكثر مما دخل في كل السنوات السابقة. وقد اعترف القرآن بهذا الإنجاز العظيم في قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} الفتح:1

ثانياً: الشرط المثير للجدل وعواقبه الحكيمة

تضايق المسلمون من شرط رد من يأتي من قريش مسلماً، بينما لا يرد من يهرب من المسلمين إلى قريش. وقد تجلّى هذا التضايق في حادثة أبي جندل الذي جاء مقيداً بالسلاسل يطلب اللجوء، فاضطر النبي صلى الله عليه وسلم لرده تنفيذاً للشرط. لكن الحكمة الإلهية تجلت لاحقاً عندما شكل أبو بصير وأبو جندل جماعة مسلحة

على ساحل البحر، اعترضت قوافل قريش، مما اضطر قريش نفسها إلى طلب إلغاء هذا الشرط. وهكذا تحول الشرط الذي بدا مجحفاً إلى نصر للمسلمين.

ثالثاً: الدروس التشريعية المستفادة من الصلح

1- الاستعانة بغير المسلمين في غير القتال: جاز النبي صلى الله عليه وسلم الاستعانة ببشر بن سفيان الخزاعي - وكان مشركاً - كجاسوس لجمع المعلومات عن قريش. وهذا يدل على جواز الاستفادة من غير المسلمين في المجالات غير العسكرية، خاصة في جمع المعلومات والاستخبارات.

2- طبيعة الشورى في الإسلام: أظهر الصلح النموذج العملي للشورى في الإسلام، حيث استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في كل خطوة. والحكمة من الشورى ليست مجرد الطاعة العمياء، بل استخراج آراء المسلمين والوصول إلى أفضل الحلول في ضوء أحكام الشريعة.

3- مشروعية التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم: وصف عروة بن مسعود كيف كان الصحابة يتبركون بنخامة النبي ووضوئه. وهذا دليل على مشروعية التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم، وهو تعبير عملي عن محبته وتقديره. وقد وردت أحاديث صحيحة في التبرك بشعره وعرقه ووضوئه.

4- أحكام القيام على الرئيس: موقف المغيرة بن شعبه وهو واقف على رأس النبي صلى الله عليه وسلم لحمايته، يستثنى من النهي العام عن القيام على الناس. فيجوز القيام لحماية الإمام أو الرئيس، خاصة عند استقبال رسل العدو، إظهاراً للعزة والاحترام.

5- مشروعية الهدنة مع الأعداء: يستدل العلماء بصلح الحديبية على جواز عقد الهدنة مع الأعداء لمدة محددة، سواء كان ذلك بعوض أو بغير عوض. والهدنة قد تكون وسيلة استراتيجية لتحقيق مصالح المسلمين.

6- تقسيم شروط الهدنة:

- الشروط الصحيحة: التي لا تخالف نصاً شرعياً

- الشروط الباطلة: التي تعارض حكماً شرعياً ثابتاً

- وقد أقر القرآن بنود الصلح إلا ما يتعلق برد النساء المسلمات.

7- أحكام الإحصار في النسك: عمل النبي صلى الله عليه وسلم بالتحلل بعد منعه من دخول مكة يدل على مشروعية التحلل للمحصر، وذلك بنحر الهدي والحلق أو التقصير، سواء في الحج أو العمرة.

رابعاً: الحكمة من صلح الحديبية:

كشف الصلح عن حكمة إلهية في جعل فتح مكة فتحاً سلمياً يرحب به الجميع، فقد هيا الصلح النفوس لقبول الإسلام، وأتاح الفرصة لقريش لمراجعة حساباتها، فدخلت في الإسلام أفواجا. وهذا يؤكد أن الحكمة والتدرج في تحقيق الأهداف من أهم سمات الدعوة الإسلامية.

غزوة خيبر 28

الزمان والمكان: خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر في السنة السابعة للهجرة بعد رجوعه من الحديبية. وذكر ابن إسحاق أن خروجه كان في بقية المحرم، مع اختلاف أهل المغازي في ضبط الشهر. وخيبر واحة واسعة شمال المدينة، عرفت بكثرة زروعها ونخيلها وبحصونها المتعددة.

الاستعداد والمسير: كان عدد الجيش قريباً من عدد أهل الحديبية، أي نحو ألف وأربعمائة مقاتل. وتذكر كتب السيرة أنه صلى الله عليه وسلم لما أشرف على خيبر دعا الله تعالى وسأله خير القرية وخير أهلها وخير ما فيها، واستعاذ به من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، ثم أمر أصحابه بالتقدم باسم الله.

بداية الغزوة: ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح؛ فإن سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار. فلما أصبح بخيبر خرج أهلها إلى أعمالهم بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا الجيش رجعوا إلى حصونهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

فتح الحصون: تحصن أهل خيبر في مجموعات من الحصون، فحاصرها المسلمون وقتلوا أهلها وفتحوها تباعاً. واختلفت روايات أهل المغازي في ترتيب فتح بعض الحصون وتحديد مدة حصارها، غير أنها تتفق على أن القتال انتهى بفتح أكثرها، ثم بطلب من بقي فيها الصلح وحقن الدماء.

إعطاء الراية لعلي رضي الله عنه: ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فدعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان

28 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص267-274؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص328-338؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج4، ص206-240.

يشتكى عينيه، فتفل في عينيه ودعا له فبرئ، ثم أعطاه الراية وأمره أن يدعو القوم إلى الإسلام ويخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، وقال: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم».

الصلح وتنظيم استغلال الأرض: لما تم الفتح طلب أهل خيبر أن يقرهم النبي صلى الله عليه وسلم في الأرض ليعملوا فيها، على أن يكون للمسلمين نصف ما يخرج منها من ثمر أو زرع. فوافقهم على ذلك ما شاء، مع احتفاظ المسلمين بحق إخراجهم منها. وكان يبعث من يقدر الثمار ويقسمها بالعدل بين الطرفين.

حادثة الشاة المسمومة: بعد فتح خيبر أهدت زينب بنت الحارث، وهي امرأة من يهود خيبر، شاة مشوية وضعت فيها السم، وأكثرته منه في الذراع لما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم يحبه. فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم منها ثم تركها لما علم بأمر السم، غير أن بشر بن البراء رضي الله عنه كان قد أكل منها فمات متأثراً بها. وثبت أصل الحادثة في كتب الحديث الصحيحة.

اختلفت الروايات في مصير المرأة؛ فورد أنه صلى الله عليه وسلم لم يعاقبها أول الأمر، وورد أنه دفعها بعد موت بشر إلى أوليائه فاقتصوا منها. ويحمل بعض أهل العلم اختلاف الروايات على التفريق بين العفو عن محاولة الاعتداء أولاً، والقصاص بعد ثبوت موت بشر بسبب السم، ولذلك لا يصح الجزم بإحدى الروايتين دون بيان الاختلاف.

تقسيم الغنائم وزواج صفية رضي الله عنها: قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر، فجعل للرجال سهماً وللفراس ثلاثة أسهم: سهماً له وسهمين لفرسه. وكانت صفية بنت حيي رضي الله عنها في السبي، فاصطفاه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، فصارت من أمهات المؤمنين.

إدارة خيبر والمعاملة الاقتصادية: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر من يتولى تقدير ثمارها وجمع حق المسلمين. وثبت في صحيح البخاري أن عامله جاءه بتمر جيد، فلما علم أنه استبدله بتمر أقل جودة مع التفاضل، نهاه عن ذلك، وأرشده إلى بيع التمر الرديء بالدرهم ثم شراء التمر الجيد بها؛ منعاً لربا الفضل.

العبر والعظات

ولقد استنبط العلماء من غزوة خيبر هذه الدلالات وأحكاماً كثيرة أخرى، نذكر منها فيما يلي جملة:

أولاً: جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية

جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية وحقيقتها، بدون إنذار مسبق أو دعوة محددة، خصوصاً بالنسبة لمن نقض العهد مع المسلمين. وهو مذهب الشافعية وجمهور الفقهاء، فذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في إغارته على خيبر. وأما بلوغ الدعوة وتفهم الإسلام فهماً صحيحاً على وجهه، فهو شرط بالاتفاق.

ثانياً: تقسيم الغنائم على الأساس الذي ورد ذكره

تقسيم أربعة أخماسها بين الغانمين، يُعطى للراجل سهم وللفرس ثلاثة أسهم: سهم له وسهمان للفرس. والخمس الباقي يوزع أخماساً على من نصت عليه الآية القرآنية: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}. وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخمس يوزع من بعده على مصالح المسلمين، كما ذهب إلى ذلك الشافعية والحنفية، وقيل: يختص به الخليفة فيصرفه فيما يراه، والقولان متقاربان.

ثالثاً: جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة

جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال، وذلك بعد استئذان أصحاب الحق فيها. فقد أشرك النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبي طالب ومن معه في الغنائم، بإذن من الصحابة حينما عادوا من الحبشة واليمن.

رابعاً: مشروعية عقد المساقاة

وهي أن يعامل مالك الأرض غيره على ما فيها من شجر، ليتعهده بالسقاية والتربية، على أن الثمار تكون بينهما.

خامساً: حرمة ربا الفضل في المطعومات

وهو أن يتبادل اثنان مطعومين من جنس واحد مع تفاضل بينهما، وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة صحيحة، منها ما رواه مسلم عن عبادة ابن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والتمر بالتمر، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والملح بالملح، إلا

سواءً بسوء، عيناً بعين، فمن زاد أو استزاد فقد أربى. ومنها ما رويناه عن البخاري من نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن مبادلة التمر الجيد بالتمر الرديء مفاضلة.

سادساً: تخللت هذه الغزوة معجزتين عظيمتين

كل منهما ثابت بالحديث الصحيح، تعدان من الخوارق العظيمة التي أيد الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم:

1- إبراء عين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

أنه صلى الله عليه وسلم تفل في عين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان يشتكي منها، فبرأت في الوقت نفسه حتى كأن لم يكن به وجع.

2- إعلامه صلى الله عليه وسلم بالشاة المسمومة

فقد أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها.

سابعاً: مصير يهود خيبر

ثم إن يهود خيبر مكثوا يزرعون الأرض على النصف من نتاجها، إلى أن كانت خلافة عمر رضي الله عنه، فقتلوا أحد الأنصار وعدوا على عبد الله بن عمر ففقطعت يداه، فأخرجهم عمر. وهكذا تم إخراج اليهود من الجزيرة العربية، ولولا بغيتهم وعدوانهم واستكبارهم على الحق لما طوردوا ولما أخرجوا، ولكن الأرض يرثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

أسئلة للمراجعة والتقويم

1- ما مظاهر التخطيط والتعاون في غزوة الأحزاب؟

2- كيف تعالج السيرة مسألة نقض العهود من خلال قصة بني قريظة؟

3- لماذا وصف القرآن صلح الحديبية بالفتح المبين؟

4- ما أبرز الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة خيبر؟

المحاضرة الثامنة السرايا ومكاتبة الملوك

مضامين المحاضرة

- ١ - السرايا الموجهة إلى القبائل ووظيفتها الأمنية والدعوية.
- ٢ - انتقال الدعوة من المحيط العربي إلى مخاطبة القوى والملوك خارج الجزيرة.
- ٣ - منهج الرسائل النبوية في التعريف بالإسلام ومراعاة أحوال المخاطبين.
- ٤ - عالمية الرسالة وارتباط الوسائل المشروعة بالمقاصد الدعوية.

السرايا إلى القبائل ومكاتبة الملوك 29

السرايا والبعوث: اتسع نشاط الدولة الإسلامية بعد صلح الحديبية، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عددًا من السرايا والبعوث إلى جهات مختلفة من الجزيرة العربية. وكانت مهامها تتنوع بين الدعوة، والاستطلاع، وتأمين الطرق، ومواجهة من ظهرت منه العداوة أو التهيؤ للقتال؛ ولذلك لا يصح اختزال جميع السرايا في غرض واحد أو عدد واحد متفق عليه.

مكاتبة الملوك: بعث النبي صلى الله عليه وسلم رسلاً يحملون كتبه إلى عدد من الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية ودخلها، يدعوهم إلى الإسلام وتوحيد الله. ومثلت هذه المكاتبات انتقال الدعوة إلى نطاق أوسع، مع مراعاة الأعراف الدبلوماسية المعروفة في ذلك العصر.

الخاتم وإرسال الرسل: ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من فضة نقشه «محمد رسول الله» لما قيل له إن الملوك لا يقرؤون كتاباً غير مختوم. وتذكر رواية ابن سعد أن ستة من الرسل خرجوا في يوم واحد بعد الحديبية، وأن كل واحد منهم كان يعرف لسان القوم الذين بعث إليهم؛ وهذه التفصيلات من أخبار المغازي، أما أصل اتخاذ الخاتم ومكاتبة الملوك فتأبث بالأحاديث الصحيحة.

الكتاب إلى النجاشي: بعث النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي. وتورد كتب السيرة أكثر من كتاب يتعلق بالنجاشي، منها الدعوة إلى الإسلام، وطلب تزويج أم حبيبة رضي الله عنها،

29 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص275-281؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968م، ج1، ص258-291؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص276-282، 606-607.

وإرسال من بقي من المهاجرين في الحبشة. وقد اختلف الباحثون في تعيين المخاطب ببعض هذه الكتب، أما التفاصيل التي تذكر وضع الكتاب على العين والنزول عن السرير فمن أخبار السيرة التي لا تبلغ قوة الروايات الصحيحة.

الكتاب إلى هرقل: بعث النبي صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل عظيم الروم، فدفع الكتاب إلى عظيم بصرى ليوصله إليه. وثبت نص الكتاب في صحيح البخاري، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى... أسلم تسلم، يؤتلك الله أجره مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»، ثم تليت آية آل عمران: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

موقف هرقل: سأل هرقل أبا سفيان، وكان يومئذ مشركاً، عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه وأتباعه ومضمون دعوته، ثم قرر أن تلك علامات النبوة. وثبت في صحيح البخاري أنه جمع عظماء الروم ودعاهم إلى ما فيه رشدهم وثبات ملكهم، فلما نفروا ورفعوا أصواتهم أخبرهم أنه أراد اختبار ثباتهم على دينهم. ولا يدل ذلك على ثبوت إسلام هرقل، بل بقي على ملكه ودينه.

الكتاب إلى كسرى: بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى ملك فارس، فمزق كسرى الكتاب، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه. وهذا الأصل ثابت في صحيح البخاري. وتذكر كتب السيرة أن كسرى أمر باذان، عامله على اليمن، أن يبعث من يأتيه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي أخبر رسولي باذان بمقتل كسرى، فلما تحقق الخبر أسلم باذان ومن معه؛ أما تحديد الليلة والساعة فمن تفاصيل روايات المغازي.

مقتل مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم: بعث النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى حاكم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وقلته. وتذكر كتب السيرة أنه كان الرسول الوحيد للنبي صلى الله عليه وسلم الذي قتل في أداء مهمته، وكان مقتله من الأسباب المباشرة لبعث جيش مؤتة.

تفاوتت مواقف الملوك والأمراء من الكتب النبوية؛ فمنهم من أجاب باحترام وقبل الدعوة، ومنهم من رد بلطف من غير إسلام، ومنهم من قابل الرسالة بالرفض أو العدوان. وفي الفترة السابقة لفتح مكة أسلم عدد من قادة قريش، ومن أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم.

إسلام خالد وعمرو وعثمان: تذكر رواية ابن إسحاق أن عمرو بن العاص خرج قاصداً المدينة للإسلام، فلقى خالد بن الوليد متوجهاً للغرض نفسه، ولحق بهما عثمان بن طلحة، فقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا وبايعوا. ويرجح كثير من أهل المغازي أن قدومهم كان في صفر من السنة الثامنة للهجرة، قبل فتح مكة بأشهر.

العبر والعظات

حكمة مشروعية هذه المرحلة:

إن الإنسان إنما خُلق على هذه الأرض ليقوم عليها دين الله تعالى وحكمه، فتلك هي الحكمة من وجوده، وهي المعنى المقصود بالخلافة في الأرض في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}. وفلسفة هذه الخلافة قائمة على حقيقة العبودية لله تعالى وحده، ونظامها قائم على الإقرار والإذعان بأن الحاكمية هي لله وحده.

استنبط العلماء من هذه الأحداث دلالات وأحكاماً كثيرة أخرى نذكر منها:

أولاً: عالمية الدعوة الإسلامية وشمولها

تتجلى عالمية الدعوة الإسلامية من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم لملوك الأمم المجاورة والمتباعدة، من الروم والفرس إلى الحبشة وغيرهم. وهذا يثبت أن الإسلام لم يكن رسالة محلية أو إقليمية، بل هو منهج حياة شامل لكل البشرية في كل زمان ومكان. وقد عبر القرآن عن هذه العالمية في قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". كما أن صيغة الخطاب في الرسائل النبوية جاءت جامعة، تخاطب الملوك والشعوب معاً، وتدعوهم إلى كلمة سواء، مما يؤكد أن الإسلام يرفض أي تمييز عرقي أو طبقي.

ثانياً: القدوة العملية وألويات الإصلاح

يشير النص إلى أن إرسال الرسل إلى الملوك جاء بعد إقامة الدولة الإسلامية واكتمال تشكيل النموذج العملي للإسلام في المدينة. وهذا يلفت الانتباه إلى أن الدعوة بالإنجاز والقدوة الحسنة هي الأساس، فالناس ينظرون إلى الإسلام من خلال سلوك أهله قبل أقوالهم. وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على بناء المجتمع المسلم القوي العادل، ليكون شاهداً على صدق الرسالة. وهذا يضع أمام المسلمين اليوم مسؤولية إصلاح ذات البين قبل التوجه إلى الآخرين.

ثالثاً: الحكمة والتدرج في منهج الدعوة

يمثل إرسال الرسل إلى الملوك مبدأ التدرج في الدعوة، والبدء بالأهم فالمهم، حيث سبقها ترسيخ العقيدة وبناء للمجتمع المسلم في المدينة، واختيار الرسل المناسبين لكل قوم، الذين يجيدون لغتهم، مما يظهر الاهتمام بفن التواصل الفعال، ومراعاة الخصوصيات الثقافية دون المساس بالثوابت الشرعية. وهذا المنهج الحكيم يستحق أن يكون نبزاً للدعاة في كل عصر.

رابعاً: مواجهة التحديات والمواقف المختلفة

تنوعت ردود الأفعال تجاه الدعوة الإسلامية، فبينما قوبلت بالرفض من كسرى، والتردد من هرقل، قوبلت بالقبول من النجاشي. وهذا يعلم الدعاة أن النتائج ليست موحدة، وأن على الداعي أن يبذل جهده ويترك النتائج لله. كما أن الموقف المتعنت لحاشية هرقل يظهر أن مقاومة الدعوة قد تأتي أحياناً بسبب المصالح الدنيوية والمراكز الاجتماعية، وليس عن قناعة فكرية.

خامساً: الربط بين الغاية والوسيلة في الدعوة

الغاية من إرسال الرسل هي تحقيق العبودية الخالصة لله، والوسيلة المتبعة هي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وهذا يضع ضوابط مهمة للعمل الدعوي، حيث يجب أن تتناسب الوسائل مع الغايات النبيلة، فلم يتبع النبي صلى الله عليه وسلم أساليب الخداع أو الإكراه، بل اعتمد على الوضوح والصدق والمنطق السليم. وهذا المنهج الأخلاقي في الدعوة هو سر قوة الإسلام واستمراره.

سادساً: الاستفادة من الأسباب مع التوكل على الله

الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله واضح جداً، فالنبي صلى الله عليه وسلم هياً كل ما يحتاج إليه إبلاغ الدعوة، من خاتم للختم، ورسل متقنين للغات، ورسائل محكمة الصياغة. وفي نفس الوقت، كان متوكلاً على الله، واثقاً بنصره، كما في قوله عن كسرى: "مزق الله ملكه". وهذا التوازن بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله هو سر النجاح في كل عمل.

أسئلة للمراجعة والتقويم

1- ما الوظائف التي أدتها السرايا في هذه المرحلة؟

2- ما الدلالة الحضارية لمكاتبة النبي صلى الله عليه وسلم للملوك؟

3- ما السمات المنهجية التي تظهر في الرسائل النبوية؟

4- كيف تجمع الدعوة بين عالمية الرسالة ومراعاة اختلاف المخاطبين؟

المحاضرة التاسعة فتح مكة وما بعده

مضامين المحاضرة

- ١- أسباب فتح مكة والتخطيط له ودخول النبي صلى الله عليه وسلم متواضعًا شاكراً.
- ٢- الأحكام المتعلقة بجرمة مكة والحرم وأعمال النبي عند الكعبة.
- ٣- خطاب الفتح وبيعة النساء وأحكامها.
- ٤- فضل الأنصار وسياسة تأليف القلوب وآداب الحرب في الإسلام.

الفتح -مقدماته ونتائجه - مرحلة جديدة من الدعوة

فتح مكة 30

زمان الفتح وسببه: وقع فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وكان سببه المباشر أن بني بكر، حلفاء قريش، أغاروا على خزاعة، حلفاء المسلمين، عند ماء الوثير، وأعانتهم قريش بالسلاح والرجال؛ فكان ذلك نقضًا لعهد الحديبية. فجاء وفد خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستنصره، وتذكر روايات السيرة أن عمرو بن سالم الخزاعي أنشده أبياتًا يصف فيها ما وقع ويطلب الوفاء بالعهد.

محاولة قريش تجديد العهد: أدركت قريش خطورة ما وقع، فأرسلت أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليجدد الصلح ويزيد في مدته. فكلم النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجبه إلى طلبه، ثم حاول الاستعانة بأبي بكر وعمر وعلي وفاطمة رضي الله عنهم، فلم ينجح، فرجع إلى مكة من غير أن يحصل على تجديد للعهد.

الاستعداد للفتح وحادثة حاطب: أخفى النبي صلى الله عليه وسلم وجهة الجيش حرصًا على مباغطة قريش وتقليل القتال. وكتب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى أهل مكة يخبرهم ببعض الأمر، فأطلع الله نبيه على ذلك، فبعث عليًا والزبير والمقداد رضي الله عنهم إلى روضة خاخ، فاستخرجوا الكتاب من المرأة التي حملته. وبين حاطب

30 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص290-303؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص389-418؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج5، ص5-118.

أنه لم يفعل ذلك ارتدادًا ولا رضا بالكفر، وإنما أراد حماية أهله بمكة، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم عذره وذكر شهوده بدرًا، ونزل صدر سورة الممتحنة في النهي عن موالاة الأعداء.

مسير الجيش إلى مكة: خرج النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان سنة ثمان في نحو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ومن انضم إليهم من القبائل. واختلفت الروايات في اليوم الذي خرج فيه واليوم الذي دخل فيه مكة، ولذلك يكتفى بالجزم بأنه كان في رمضان. واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وسار حتى نزل مر الظهران قريبًا من مكة، فأوقد المسلمون نيرانًا كثيرة أظهرت قوة الجيش.

إسلام أبي سفيان: خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون خبر الجيش، فلقاهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأدخل أبا سفيان على النبي صلى الله عليه وسلم. وتذكر رواية ابن إسحاق الحوار الذي دار في إقراره بالتوحيد والرسالة، ثم أعلن أبو سفيان إسلامه قبل دخول الجيش مكة. إعلان الأمان: طلب العباس رضي الله عنه أن يجعل لأبي سفيان شيئًا يذكر به في قومه، فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن. ثم رجع أبو سفيان إلى مكة وحذر قريشًا من مقاومة الجيش، فأثر أكثر أهلها لزوم البيوت أو دخول المسجد.

دخول مكة: قسم النبي صلى الله عليه وسلم الجيش إلى كتائب، وأمر قادته بألا يقاتلوا إلا من قاتلهم. فدخلت الكتائب من جهات متعددة، ولم يقع قتال يذكر إلا في الجهة التي دخل منها خالد بن الوليد رضي الله عنه، إذ اعترضته جماعة من قريش فقاتلهم حتى تفرقوا. وتذكر روايات السيرة استثناء نفر محدود ممن عظمت جرائمهم من الأمان العام، وقد اختلفت في عددهم وأسمائهم، ثم عفا النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر من وردت أسماءهم بعد أن أسلموا أو استأمن لهم.

تطهير المسجد الحرام والكعبة: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة خاشعًا مطأطيء الرأس شكرًا لله، وطاف بالبيت، وكان حوله ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنهم بمحجن في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. ثم أمر بإخراج ما في الكعبة من الصور والأصنام ودخلها. وثبت عن بلال رضي الله عنه أنه صلى فيها، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه كبر في نواحيها ولم يصل؛ وقد جمع العلماء بين الروایتين بوجوه معروفة.

رد مفتاح الكعبة والعفو العام: أعاد النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وأقر لبني شيبه سدانتهما، كما أقر سقاية الحاج. وخطب الناس مقررًا التوحيد وإبطال مآثر الجاهلية ودعاوى الدم والمال إلا السدانة والسقاية. واشتهر في كتب السيرة أنه عفا عن عامة أهل مكة، وعرف من أسلم منهم يومئذ ومن بعدهم بالطلقاء؛ أما العبارة المتداولة «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فمعناها موافق للعفو العام، غير أن طرقها لا تبلغ قوة الأحاديث الصحيحة.

تأملات في كيفية دخوله صلى الله عليه وسلم إلى مكة

هل فتحت مكة عنوة أم صلحاً؟

اختلف العلماء في ذلك، فذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما وآخرون إلى أنه دخلها صلحاً، وكان الممثل لقريش في هذا الصلح هو أبو سفيان، وكان الاتفاق والشرط فيه على أنه: من أغلق بابه فهو آمن، ومن أسلم فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، إلا ستة نفر هدر دمهم.

ذهب جمهور العلماء إلى أن مكة فتحت عنوة (أي قهراً)، وأبرز حججهم:

القتال الفعلي: وقع قتال بقيادة خالد بن الوليد ضد بعض رجال قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل.

إعلان الأمان المشروط: في قول النبي ﷺ: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ".

إباحة مكة ساعة من نهار: لقول النبي ﷺ في خطبة الفتح: "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ"، هذا الاستثناء المؤقت للحرمة ينطبق على حالة فتح البلاد عنوة للحرب.

ويمكن الجمع بين الرأيين بأن الفتح كان عنوة في الأصل، حيث دخل الجيش الإسلامي بقوة دون رغبة قريش في القتال، لكن النبي ﷺ عامل أهلها بمعاملة الصلح تصرفاً منه بالرحمة والعفو.

التواضع والشكر لله تعالى: لقد رأينا فيما يرويه البخاري عن عبد الله بن مغفل أنه صلى الله عليه وسلم كان وهو على مشارف مكة يقرأ سورة الفتح، يرجع في تلاوته لها، (والترجيع كيفية في القراءة يترنم بها القارئ). ولما وصل إلى ذي طوى كان يضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عشونته (من شعر اللحية) ليكاد يمس واسطة الرحل. وهذا يعني أنه صلى الله عليه وسلم كان مندمجاً في حالة من العبودية التامة لله تعالى إذ

رأى ثمرة القيام بأمر ربه، ونظر إلى نتيجة كل ما قد كان لقيّه من العذاب من قومه، وكيف أن الله تعالى أعاده إلى البلد التي أخرجته عزيزاً منصوراً مكرماً.

مشروعية التغني بالقرآن: ويدلنا أيضاً هذا الذي رواه البخاري على مشروعية التغني بقراءة القرآن والتطريب الذي لا يطغى على سلامة الأداء ويذهب بالحروف والكلمات عن مخارجها العربية الصحيحة، إذ أن مثل هذه التلاوة غير جائزة باتفاق.

التدبير الحكيم في الدخول: لقد كان التدبير الحكيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا في مداخل مكة ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأعلن أن من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، حقناً للدماء.

ما اختص به الحرم المكي من الأحكام

حرمة القتال فيه: لقد رأينا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه عن قتال أحد، إلا أن يبدأ الناس المسلمين بالقتال، إلا ستة أنفار أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم أينما وجدوا. كما رأينا أنه صلى الله عليه وسلم قال فيما خطب به الناس يوم الفتح: "إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجراً، فإن ترخص في قتال فيها فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس".

تحريم صيده: ويستثنى من عموم الحيوانات خمسة أصناف استثنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عموم المنع وسمها الفواسق: الغراب والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور، وقد قاس عليها العلماء ما يشاركها في صفة الإيذاء من الحيوانات الأخرى كالحية والسباع الضارية.

حكم دخوله مكة: فمن قصد مكة - أو قصد شيئاً من حرمه، وكان ممن لا يتكرر دخوله، فقد اختلف العلماء هل يتعلق الطلب بالإحرام وجوباً أم ندباً؟ وسبب الخلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما دخل مكة يوم الفتح لم يكن محرماً بدليل ما رواه مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء بغير إحرام.

حرمة تمكين غير المسلمين من الإقامة فيه: لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} التوبة: 28.

تأملات فيما قام به صلى الله عليه وسلم من أعمال عند الكعبة المشرفة

الصلاة داخل الكعبة: ذكرنا ما رواه البخاري عن ابن عباس من أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل البيت حتى أخرج ما كان فيه من أصنام، وأخرجت صورة لإبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزام... ثم دخل البيت فكبر في نواحيه ولم يصل. وقد روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فصلى. حكم التصوير واتخاذ الصور: وقد رأيت فيما نقلناه من حديث البخاري نفسه أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل الكعبة حتى أخرج كل ما فيها من صور وأصنام.

حجابه البيت: وبناء على ما ذكرناه من أنه صلى الله عليه وسلم أعاد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة وقال له: "خذوها خالدة مخلدة" - يقصد بني عبد الدار وبني شيبه - "لا ينزعها منكم إلا ظالم"، فقد ذهب عامة العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن ينتزع حجاب البيت وسداته منهم إلى يوم القيامة.

تكسير الأصنام: فقد دخل صلى الله عليه وسلم مكة متجهاً إلى البيت، وحوله ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعن الواحدة تلو الأخرى يعود في يده، وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد.

تأملات في خطابه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح

استفتح خطابه بقوله: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعهده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"، ثم علق بعد ذلك أن يعلن أمام قريش وغيرهم من سائر الناس عن المجتمع الجديد وشعاره الذي يتجلى في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}. إذاً فلتدفن تحت أقدام المسلمين بقايا تلك الشعارات الجاهلية العتيقة العفنة، من التفاخر بالآباء والأجداد، والتباهي بالقومية والقبلية والعصبية، والاعتزال بفوارق الشكل واللغة والأنساب فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب. وبايعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، على أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وعلى أنه لا تعاضم إلا بحلة الإسلام ولا مباهاة إلا بالتمسك بنظامه، وبناء على ذلك ملكهم الله زمام العالم وأخضع لهم الدنيا. فأعجب بعد ذلك لجيفة منتنة تبعث اليوم من رمتها بعد مضي أربعة عشر قرناً على موتها ودفنها.

بيعة النساء وما يتعلق بها من أحكام

نأخذ منها ما يلي:

أولاً: المساواة في المسؤوليات: اشتركت المرأة مع الرجل - على أساس المساواة التامة - في جميع المسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم، ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم المسلم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع المسلم بكل الوسائل المشروعة الممكنة، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال، ليس بينهما فرق ولا تفاوت. ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تتعلم شئون دينها، كما يتعلم الرجل، وأن تسلك كل السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعي والتنبه إلى مكامن الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به، حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذي قطعته على نفسها وتنفذ عقد البيعة الذي في عنقها، وواضح أن المرأة لا تستطيع أن تنهض بشيء من هذا إذا كانت جاهلة بحقائق دينها غير منتبهة إلى أساليب الكيد الأجنبي من حولها.

ثانياً: كيفية بيعة النساء: علمنا مما ذكرناه من كيفية بيعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم، أن بيعتهن إنما كانت بالكلام فقط من غير أخذ الكف، وذلك على خلاف بيعة الرجال.

ثالثاً: سماع كلام الأجنبية: دلت أحاديث البيعة التي ذكرناها على أن كلام الأجنبية مباح سماعه عند الحاجة، وأن صوتها ليس بعورة.

فضل الأنصار ومدى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم

عطاء رسول الله المؤلفه قلوبهم: خصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفه قلوبهم - وهم أهل مكة - بمزيد من الغنائم والأعطيات يتألف قلوبهم على الإسلام، فوجد بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك وقالوا: "يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!" فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى الأنصار فاجتمعوا في مكان أعد لهم، ولم يدع معهم أحد غيرهم، ثم قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي" (كلما قال لهم من ذلك شيئاً قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل) ثم قال: "ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟" قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل، فقال صلى الله عليه وسلم: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك" فصاحوا: بل المن علينا الله ورسوله، ثم تابع صلى الله عليه وسلم قائلاً: "أوجدتم يا معشر الأنصار في

أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار، وإنكم سترون أثره من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسماً ونصيياً.

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة معتمراً فلما فرغ انصرف راجعاً إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد.

بعض آداب الحرب عند المسلمين

تحريم قتل النساء والأطفال والأجراء والعبيد في الجهاد

فقد دل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى المرأة التي قتلها خالد بن الوليد في غزوة حنين فأرسل من يقول له: "إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً"، وقد اتفق العلماء والأئمة كلهم على ذلك، ويستثنى منه ما إذا اشتركوا في القتال وباشروا في مقاتلة المسلمين، فإنهم يقتلون مقبلين، ويجب الإعراض عنهم مدبرين، كما أنه يستثنى ما إذا تترس الكافر بصبيان ونسائه، ولم يمكن رد غائلتهم إلا بقتلهم، فإن ذلك جائز، وعلى الإمام أن يتبع ما تقتضيه المصلحة.

الجهاد لا يعني الحقد على الكافرين

وقد دل على ذلك ما ذكرناه من أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند منصرفهم من حصار الطائف: "ادع الله على ثقيف"، فقال: "اللهم اهد ثقيف وأت بهم"، وهذا يعني أن الجهاد ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما هي مسئولية الناس جميعاً تجاه بعضهم، لمحاولة إعتاق أنفسهم من العذاب الأبدي يوم القيامة. ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين لا ينبغي أن يتجه إلى غيرهم إلا بالهداية والصلاح، لأن هذه الغاية هي الحكمة من مشروعية الجهاد.

سياسة الإسلام نحو المؤلفات قلوبهم

لقد رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم اختص أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة الأصلية بين المقاتلين، وهذا العمل منه صلى الله عليه وسلم من أهم الأدلة التي استدلت بها عامة الأئمة والفقهاء على أنه يجوز للإمام أن يزيد في عطاء من يتألف قلوبهم على الإسلام بالقدر

الذي تدعو إليه المصلحة من تألف قلوبهم، ولا مانع من أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم. ومن هنا كان لهؤلاء سهم خاص باسمهم في الزكاة، يجتمع تحت يد الحاكم ليعطي منه (كلما دعت الحاجة) لمن يرى أن المصلحة الإسلامية تدعو إلى تألف قلوبهم.

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- كيف أدى نقض عهد الحديبية إلى فتح مكة؟
- 2- ما الدلالات التربوية في هيئة دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة؟
- 3- ما أهم الأحكام التي تتعلق بجرمة مكة والبيت الحرام؟
- 4- كيف تكشف سياسة المؤلف قلوبهم عن فقه الأولويات والمصلحة العامة؟

المحاضرة العاشرة غزوة تبوك وحج أبي بكر

مضامين المحاضرة

- ١- ظروف غزوة تبوك وما كشفت عنه من صدق المؤمنين ومواقف المنافقين.
- ٢- قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه وقيم الصدق والانضباط الجماعي.
- ٣- حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس سنة تسع.
- ٤- إعلان البراءة وتنظيم العهود ومنع المشركين من الحج والطواف عراة.

غزوة تبوك 31

الزمان والسبب: خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في رجب من السنة التاسعة للهجرة على المشهور عند أهل المغازي. وكان سبب الخروج ما بلغ المسلمين من استعداد الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب المنتصرة في أطراف الشام. ولم يقع قتال في تبوك، كما أن الأخبار التي تحدد عدد جيش الروم بأربعين ألفاً لا تثبت بإسناد قوي، فيذكر أصل الاستعداد دون الجزم بذلك العدد.

إعلان الوجهة والاستعداد: كانت المسافة بعيدة والحر شديد والزد والظهر قليلين، وقد طابت ثمار المدينة، فصرح النبي صلى الله عليه وسلم بوجهته خلاف عادته في أكثر غزواته حتى يستعد الناس. وثبت في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوري في الغزوات إلا في تبوك؛ لبعد الشقة وكثرة العدو وشدة الزمان.

مواقف الناس من النفير: أظهر الامتحان تفاوت المواقف؛ فبادر المؤمنون إلى التجهيز والخروج، واعتذر أصحاب الأعذار، وتحلف المنافقون وثبطوا غيرهم. وسجلت سورة التوبة أقوالهم ومواقفهم، ومنها قول بعضهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، وقول أحدهم: ﴿إِذْنِي لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾. أما تعيين أصحاب بعض الأقوال وتفاصيل حوادثهم فمداره على روايات التفسير والمغازي.

31 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص325-329؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص516-530؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج5، ص215-273.

القرآن وغزوة العسرة: نزلت آيات كثيرة من سورة التوبة في شأن الغزوة، فذمت المثبتين والمعتذرين بغير حق، وأثنت على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، وعذرت الضعفاء والمرضى ومن لا يجدون ما ينفقون إذا نصحو الله ورسوله. ولذلك عرفت تبوك بغزوة العسرة.

الإنفاق في تجهيز الجيش: حث النبي صلى الله عليه وسلم على النفقة، فتسابق الصحابة بحسب استطاعتهم. واشتهر إسهام عثمان بن عفان رضي الله عنه بمال كثير وتجهيز عدد كبير من الإبل، وجاءت في مقداره روايات متعددة؛ وثبتت له فضيلة عظيمة في تجهيز جيش العسرة، فلا يتوقف أصل فضله على تعيين عدد واحد. نماذج البذل: تذكر كتب السنن والسيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء بنصف ماله، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه جاء بماله، فقال إنه أبقي لأهله الله ورسوله. وقد حسن بعض أهل الحديث خبر التنافس في الصدقة، غير أن تعيين وقوعه في تجهيز تبوك ليس منصوفاً عليه في جميع طرقه، فيذكر بوصفه من أخبار البذل المشهورة دون جزم بزمانه.

البكاؤون: جاء نفر من المؤمنين يطلبون ما يحملهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. ونص القرآن على براءتهم من الحرج في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة: 92)، فكان صدق رغبتهم عذراً لهم وإن لم يخرجوا.

الخروج إلى تبوك: خرج الجيش في عدد كبير قدره أهل المغازي بنحو ثلاثين ألفاً، وهو أكبر جيش خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الوقت. وت خلف كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية رضي الله عنهم من غير نفاق ولا عذر، ثم صدقوا في الاعتراف بتقصيرهم. وتأخر أبو خيثمة رضي الله عنه ثم لحق بالجيش. أما عدد الجيش التفصيلي فمن تقديرات أهل المغازي لا من نص حديث صحيح صريح.

البركة في الطعام: أصاب الجيش جوع وشدة، فاستأذن بعض الصحابة في نحر رواحلهم، فأشار عمر رضي الله عنه بجمع ما بقي من الأزواد والدعاء فيه بالبركة. فجمعوه ودعا النبي صلى الله عليه وسلم، فأكلوا وشبعوا وملؤوا أوعيتهم وبقيت فضلة. وأصل هذه القصة ثابت في صحيح مسلم، وهي من دلائل بركة دعائه صلى الله عليه وسلم.

الوصول والعودة: بلغ المسلمون تبوك فلم يقع قتال؛ إذ لم يواجههم جيش الروم. وجاء يوحنا بن ربيعة صاحب أيلة فصالح النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية، وصالحه أهل جرباء وأذرح، وكتب لهم العهود. وفي الطريق مر

المسلمون بالحجر، ديار ثمود، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن دخول مساكن المعذبين إلا باكين. ثم عاد إلى المدينة، وأخبر أن أقوامًا فيها شاركوهم الأجر إذ حبسهم العذر. وتختلف روايات المغازي في تحديد مدة الرحلة وتاريخ الرجوع، فلا يجزم بأنها انتهت في رمضان.

قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه 32

العودة وموقف المتخلفين: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس. فجاءه المتخلفون يعتذرون ويخلفون، فقبل علانيتهم ووكّل سرائرهم إلى الله. أما كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية رضي الله عنهم فصدقوا ولم يختلقوا أعداءً، فأرجأ النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم حتى يحكم الله فيهم.

روى كعب رضي الله عنه خبره في حديث طويل متفق عليه، وذكر أنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف، وأنه ظل يؤخر الاستعداد حتى خرج الجيش وفاته، ثم عزم على الصدق حين علم بعودة النبي صلى الله عليه وسلم، مع قدرته على صناعة عذر يرضي الناس.

الصدق عند اللقاء: لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن سبب تخلفه، أقر كعب بأنه لا عذر له، وقال إنه يخشى أن يرضي النبي بكذب ثم يسخطه الله عليه، ويرجو عفو الله إن صدق. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما هذا فقد صدق»، وأمره أن ينتظر حكم الله. وقال مرارة وهلال مثل ذلك.

المقاطعة: نهي النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلام الثلاثة، فاجتنبهم الناس خمسين ليلة. ولزم مرارة وهلال بيوتهما يبيكان، وكان كعب يخرج للصلاة والأسواق ولا يكلمه أحد، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم.

امتحان رسالة ملك غسان: جاء إلى كعب كتاب من ملك غسان يدعوه إلى اللحاق به بعد أن بلغه ما وقع له، فعد كعب ذلك ابتلاءً جديدًا، وأحرق الكتاب، وثبت على جماعة المسلمين ولم يستجب للإغراء.

32 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص329-341؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص531-538؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج5، ص273-279.

اعتزال الزوجات: بعد أربعين ليلة أمر النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة أن يعتزلوا زوجاتهم من غير طلاق، فامتلأوا. ومضت عشر ليال أخرى حتى اكتملت خمسون ليلة، وبلغ البلاء غايته مع ثباتهم على الصدق والتوبة.

نزول التوبة والبشرى: بعد صلاة الفجر في الليلة الخمسين أعلن النبي صلى الله عليه وسلم قبول توبة الثلاثة، فانطلق الناس يبشرونهم. وسمع كعب من يناديه من جبل سلع: يا كعب بن مالك أبشر، فخر ساجداً لله، وخلع ثوبيه فكساهما المبشر فرحاً، ثم توجه إلى المسجد.

استقبال النبي وقرار كعب: قام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه إلى كعب فصافحه وهنأه. ولما سلم كعب على النبي صلى الله عليه وسلم قال له ووجهه يبرق من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». وأخبره أن التوبة من عند الله. وأراد كعب أن يتصدق بماله كله، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يمسك بعضه، فعاهد نفسه على الصدق، ونزل قول الله تعالى في توبة الثلاثة: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: 118).

العبر والعظات

الدروس المستفادة من غزوة تبوك

أولاً: أهمية الجهاد بالمال في الإسلام

الجهاد بالمال ركن أساسي في الإسلام عندما تتوقف العمليات العسكرية على النفقات. وقد وجب على المسلمين الإنفاق حسب قدراتهم المالية تحقيقاً للكفاية. ويستدل على ذلك بحديث أبي بكر الصديق عندما قدم جميع ماله للجهاد، مجيباً رسول الله: "أبقيت لهم الله ورسوله".

ثانياً: حقيقة المنافقين وخطورتهم

كشفت سورة التوبة في غزوة تبوك عن حقيقة المنافقين وخطورتهم على المجتمع الإسلامي. حيث بينت أن الجهاد بالمال والنفس هو الدليل الحقيقي على صدق الإيمان. وجعلته الفارق الأساسي بين المؤمنين الصادقين والمنافقين المتخلفين عن الجهاد.

ثالثاً: مشروعية الجزية وأهل الكتاب

شرعت الجزية لأهل الكتاب كضريبة مالية تؤمن لهم الحماية في الدولة الإسلامية. وقد طبقت في غزوة تبوك عندما صالح رسول الله متنصرة العرب على دفع الجزية. وهي تقوم مقام الزكاة في المسلمين مع اختلاف في الأساس التشريعي بينهما.

رابعاً: الاعتبار بآثار الأمم السابقة

حذر رسول الله من الإقامة في ديار الأمم الهالكة إلا للاعتبار والعظة. وقد بين ذلك عندما مر بمنازل ثمود محذراً أصحابه. ففي هذه الآثار عبرة للأحياء، لكن الناس غالباً ما يقتصرون على النظر لقيمتها الأثرية دون الاعتبار.

خامساً: معاملة المنافقين والمؤمنين

تميزت معاملة الرسول بين المنافقين والمؤمنين بالحكمة البالغة. فكانت شدته على المؤمنين تأديباً وتكريماً، بينما عامل المنافقين بمنهج مختلف. وذلك لأن المؤمنين يستحقون التشريف والتأديب، بخلاف المنافقين الذين لا يستأهلون المعاملة.

حج أبي بكر بالناس سنة تسع 33

تأمير أبي بكر على الحج: في السنة التاسعة للهجرة بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج ليقوم للمسلمين مناسكهم. وكان المشركون لا يزالون يحضرون الموسم وتظهر في حجهم بعض عادات الجاهلية، فكان هذا الحج مرحلة فاصلة في تطهير الشعيرة والبيت الحرام من تلك الممارسات. ثبوت النداء يوم النحر: روى أبو هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر بعثه في رهط من المؤذنين يوم النحر ينادون في الناس: «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». والحديث ثابت في الصحيحين، وهو أوثق ما ورد في تحديد مضمون النداء ووقته.

بعث علي بآيات براءة: أرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بآيات من صدر سورة براءة ليبلغها في الموسم. وبقي أبو بكر أميراً على الحج، يقيم للناس مناسكهم، وكان علي مبلغاً عن رسول الله

33 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص341-343؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص543-546؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج5، ص298.

صلى الله عليه وسلم بما نزل في شأن البراءة والعهود. وتختلف الروايات في عدد الآيات المقررة وفي تكرار قراءتها في مواقف الحج، فيثبت أصل التبليغ دون الجزم بتلك التفاصيل.

مضمون الإعلان وأحكام العهود: اشتمل الإعلان على منع المشركين من الحج بعد ذلك العام، ومنع الطواف بالبيت عراة، وبيان البراءة من عهود من نقضوا أو لم تكن عهودهم مؤقتة على الوجه المبين في صدر سورة التوبة. أما من كان له عهد محدد المدة ولم ينقص المسلمين شيئاً ولم يظاهر عليهم أحداً، فقد أمر الله بإتمام عهده إلى مدته؛ لذلك لا تجعل مهلة الأشهر الأربعة حكماً عاماً يشمل جميع المعاهدين.

عدد الحجيج والهدي: تذكر كتب المغازي والطبقات أن أبا بكر خرج في نحو ثلاثمائة من المسلمين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معه عشرين بدنة. وهذه تفاصيل تروى في أخبار المغازي، أما الثابت الذي لا خلاف في أصله فهو تأمير أبي بكر على الحج سنة تسع، وإعلان منع حج المشركين والطواف عراة بعد ذلك العام.

العبر والعظات

أولاً: تقاليد المشركين في الحج

كان المشركون يحجون مع المسلمين، ويعارضون المسلمين بإعلاء أصواتهم ليغلطوهم بذلك، فيقولون: "لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك". وكان الرجال منهم يطوفون بالبيت عراة ليس على رجل منهم ثوب، يرون ذلك تعظيماً للبيت، وكان يقول أحدهم: "أطوف بالبيت كما ولدتني أمي، ليس على شيء من الدنيا خالطه الظلم". وظلت هذه الأرجاس إلى نهاية العام التاسع من الهجرة، حيث كان حج أبي بكر رضي الله عنه والإنذار الذي بلغه كل من أبي بكر وعلي رضي الله عنهما لسائر المشركين، إيذاناً بطهارة المسجد الحرام عن تلك الأرجاس وزوالها إلى غير رجعة.

ثانياً: إنهاء العهود وإعلان البراءة:

قال محمد بن إسحاق وغيره: أحدهما: كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد إلى ما دون أربعة أشهر من الزمن، فأمهل هذا الصنف إلى تمام المدة. وثانيهما: كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد مفتوح، أي بغير أجل، فاقتصر به القرآن في سورة براءة على أربعة أشهر.

ثالثاً: الاستثناء في الوفاء بالعهود:

وهو رأي الكلبي - إنما الأشهر الأربعة مدة لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد دون أربعة أشهر، فأما من كان عهده أكثر من ذلك، فقد أمر الله أن يتم عهده إلى مدته، فذلك معنى قول الله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} التوبة 4.

أسئلة للمراجعة والتقويم

- 1- لماذا سميت تبوك بغزوة العسرة؟
- 2- ما القيم التربوية المستفادة من قصة كعب بن مالك وصاحبيه؟
- 3- ما دلالة تأمير أبي بكر على الحج سنة تسع؟
- 4- كيف جمع إعلان البراءة بين إنهاء الشرك والوفاء بالعهود القائمة؟

المحاضرة الحادية عشرة حجة الوداع ومرض النبي ووفاته

مضامين المحاضرة

- ١ - حجة الوداع وبيان النبي صلى الله عليه وسلم لمناسك الحج قولاً وفعلاً.
- ٢ - المضامين الثابتة في خطبة عرفة ووصايا الوداع.
- ٣ - مرض النبي صلى الله عليه وسلم وإمامة أبي بكر للناس.
- ٤ - وفاته صلى الله عليه وسلم وموقف أبي بكر في تثبيت الأمة.

حجة الوداع 34

الاستعداد للحج وأداء المناسك: أعلن النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة للهجرة عزمه على الحج، فقدم المدينة خلق كثير يريدون الاقتداء به. وخرج لخمس بقين من ذي القعدة على ما في حديث جابر رضي الله عنه، وأحرم من ذي الحليفة، وسار الناس معه حتى بلغ مكة. فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، ثم توجه إلى منى، ومنها إلى عرفة، فوقف بها وخطب الناس، ثم أفاض إلى مزدلفة، وعاد إلى منى يوم النحر، فأتم المناسك وبيّنها للناس قولاً وفعلاً، وقال: «لتأخذوا مناسككم»، فكانت حجته البيان العملي الجامع لأحكام الحج.

خطبة عرفة ووصايا الوداع: ثبت في حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرر في خطبته حرمة الدماء والأموال، ووضع دماء الجاهلية ورباها، وأوصى بالنساء خيراً، وأكد الاعتصام بكتاب الله، ثم استشهد الناس على أنه بلغ الرسالة فشهدوا له، فقال: «اللهم اشهد». وجاءت في أحاديث صحيحة أخرى من خطبه في أيام الحج وصايا بتبليغ الشاهد الغائب، والنهي عن رجوع المسلمين بعده يضرب بعضهم رقاب بعض، وبيان أخوة المسلمين. أما النص الطويل الشائع المسمى «خطبة الوداع» فهو غالباً صياغة جامعة لمضامين وردت في روايات ومواطن متعددة، وليس حديثاً واحداً مسنداً بهذا اللفظ كله.

34 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص357-365؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص601-606؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج5، ص432-443.

مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته 35

بدء المرض وإمامة أبي بكر: اشتد مرض النبي صلى الله عليه وسلم في أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة. وظل ينتقل بين بيوت أزواجه حتى استأذنه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له. ولما ثقل عليه الخروج إلى الصلاة أمر أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يصلي بالناس، فكانت إمامته من أبرز أحداث الأيام الأخيرة من حياته صلى الله عليه وسلم.

وفاته وموقف أبي بكر: اشتدت سكرات الموت بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يمسح وجهه بالماء ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات». ثم استاك بالسواك وهو في حجر عائشة رضي الله عنها، ورفع بصره وقال: «بل الرفيق الأعلى»، فتوفي يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة. ولما شاع الخبر اضطرب الناس، وأنكر عمر رضي الله عنه موته من شدة الصدمة، حتى قدم أبو بكر من السنح، فدخل عليه وكشف عن وجهه وقبله، ثم خرج إلى الناس فقال: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، وتلا قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران: 144]، فعاد الناس إلى اليقين وثبتوا أمام هول المصاب.

الدروس والعبر

أولاً: لا مفاضلة في الإسلام إلا بالعمل الصالح:

فقد كان زيد ابن حارثة رقيقاً وهو والد أسامة هذا، وهو في أصله مولى، وكان أسامة كما قلنا فتى صغيراً بين الثامنة عشر والعشرين من العمر، ومع ذلك فلا الصغر ولا الرق القديم منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يجعله أميراً على عامة الصحابة في غزوة مهمة كبرى، ولئن وجد المنافقون في هذا مثاراً للتعجب أو الاستنكار، فإن شريعة الإسلام لا تستغرب ذلك ولا تستنكره، فما جاء الإسلام إلا ليحطم مقاييس الجاهلية التي كانوا يتفاضلون بها ويتفاوتون.

35 لموضع هذا الحدث في المصادر، ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، ط25، 1426هـ، ص366-380؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1375هـ/1955م، ج2، ص642-656؛ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م، ج7، ص163-219.

ثانيا: مشروعية الرقية وفضلها:

وهي التعويد، ودليل ذلك ما روينه من حديث البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده... الخ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يرقى أصحابه بالقرآن آناءً، وبالأذكار والأدعية الأخرى، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال: "أذهب الباس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً". ومن أوضح الأدلة على مشروعية الرقية بالقرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾.

في بعض صفاته صلى الله عليه وسلم

كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، وما أدرج في أكفانه وضع على سريره على شفير القبر ثم دخل الناس أرسالاً يصلون عليه فوجاً فوجاً لا يؤمهم أحد، فأولهم صلاة عليه العباس ثم بنو هاشم ثم المهاجرين ثم الأنصار، ثم سائر الناس، ودفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكانه الذي توفي فيه في حجرة عائشة.

ثبت في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شمت رائحة قط أطيب من رائحته، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي قط أف، ولا قال لشيء فعلته لما فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا؟".

وزيارة مسجده وقبره صلى الله عليه وسلم من المستحبات، أجمع على ذلك جماهير المسلمين في كل عصر إلى يومنا هذا. فمن السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي" (رواه الدارقطني والبيهقي وحسنه الألباني). وقوله: "مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أُرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ" (رواه أبو داود وأحمد، وصححه الألباني).

من الآثار: فعل الصحابة والسلف الصالح، حيث كانوا يذهبون إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيماً، وَآخِرُ دُعَائِنَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

- 1- كيف جسدت حجة الوداع البيان العملي لأحكام الحج؟
- 2- ما أهم الحقوق والمبادئ التي أكدتها خطبة عرفة؟
- 3- ما دلالة أمر أبي بكر أن يصلي بالناس في مرض النبي صلى الله عليه وسلم؟
- 4- كيف أسهم موقف أبي بكر بعد الوفاة في استعادة توازن الجماعة المسلمة؟

فهرس لأنواع التأليف في السيرة النبوية

1- القرآن الكريم

2- كتب الحديث النبوي الشريف:

— صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة، ومسنند أحمد، ومسنند أبي يعلى، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، والأحاديث المختارة للضياء المقدسي، والمصنف لعبد الرزاق، والمصنف لابن أبي شيبة، ومعاجم الطبراني الثلاثة، الكبير والأوسط والصغير، وغير ذلك من المصنفات.

3- كتب الشمائل

— الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض

— الشمائل لابن كثير، ضمن كتابه البداية والنهاية

4- كتب دلائل النبوة

— دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني

— دلائل النبوة للإمام البيهقي، وقد لخصه الإمام الذهبي في أول تاريخه الكبير.

— دلائل النبوة لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني

5- كتب المغازي والسير

— سيرة ابن هشام

6- كتب خصائص النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله

— نهاية السؤل في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، لابن دحية الكلبي

— غاية السؤل في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، لابن الملقن

— بداية السؤل في تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم، للعز بن عبد السلام

7- مؤلفات معاصرة في السيرة:

— السيرة النبوية دروس وعبر، لمصطفى السباعي

__ هذا الحبيب يا محب، للشيخ أبي بكر الجزائري

__ فقه السيرة للدكتور سعيد رمضان البوطي (المرجع الرئيسي لهذه المحاضرات)

__ فقه السيرة لمحمد الغزالي، وقد خرج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

__ الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفوري

__ السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري

__ السيرة النبوية الصحيحة لمحمد بن رزق الطرهوري

__ تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون _

المراجع المعتمدة

1. القرآن الكريم.
2. البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الخامسة والعشرون، 1426هـ.
3. ابن هشام، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، 1375هـ/1955م.
4. البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م.